1

د. حسن البنداري

يــوم...

قصص

الطبعة الأولى

٢٠٠٨

أجيال

تسويق ونشر

مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافى

الكتاب: يوم

المؤلف: د. حسن البندارى

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٤٩٠٨

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-6215-17-3

البندارى، حسن.
يوم: قصص قصيرة/ حسن البندارى. ط١. - القاهرة: مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافى، ٢٠٠٧.
١٣٢ ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٣-١٧-٦٢١٥-٩٧٧
١- القصص العربية القصيرة.
أ- العنوان ٨١٣,٠١

يـــــــوم...

قصص

المدير العام خالد عبد الصمد خفاجي

مدير النشر عـــادل متـــولي

الجمع والصف الإلكترونى

القسم الفنى

إشراف وتنفيذ إيمان خفاجي

تصميم الغلاف: للفنان عطية الزهيري

لوحة الغلاف: للفنان عبد العال

طباعة: مطبعة العمرانية للأوفسيت – الجيزة



تسويق ونشر

مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافى

الإدارة والمكتبة: ٤٤٩ ش السودان – المهندسين
الدور الأول- شقة ٤
أمام مجمع محاكم شمال الجيزة.
التسويق: ٠١٢٢٣٧٠٥٠٢٤- ٠١٠١٨٨٩٣٦٣
Email: aagyal@yahoo.com
aagyal@hotmail.com

يـــوم..

يـــوم..

(١)

صحوت من نومى فزعاً بصوت أبي يوجه كلامـــه إلـــى أمى. كانا فى حجرة نومهما المجاورة للحجرة التى تجمعنـــى وشقيقى النائمين. كان أبى يحذرها بصـــوته الجهـــورى مـــن اعتراضها على تأخره كل ليلة فى العودة إلى المنزل. كـــان صوته الحاد للغاية يثير فى نفسى منابع الرعـــب. غـــادرت سريرى خائفاً ومشيت بحذر تجاه باب الحجرة. فتحته قلـــيلاً

ووقفت إلى جواره. كان باب حجرتهما مواربا فسمعت أمـــى تقول بصوت بطيء هادئ يخلو من الانفعال:

- من شهور .. لا يراك الأولاد.!

- ينقصكم شيء ؟

أجابت بصوت واهن متقطع وكأنها لم تسمعه :

- أنت.. تتأخر.. كل ليلة .!

فقال بصوت عنيف :

- أنا حر. وبالمناسبة أنا لا أحب الملاحقة .

فأردفت بنفس الصوت الواهن المتقطع:

- أنا.. لا.. ألاحقك.

- ولا أحب الأسئلة.

- تذكر أننا .. ننتظرك نحن السبعة .. كل ليلة .

فقال بحدة:

- لا أحب أن ينتظرنى أحد.

عندما سمعت صوت قدميه تدقان الأرض دقـاً وهـو يغـادر الحجرة – تراجعت وهرعت إلى سريرى خوفاً من أن يرانى واقفاً بجوار الباب الموارب فيعاقبنى. جلست وسط الفـراش

مضطرباً أسمع دقات قلبى الصغير. كانت عنيفة متلاحقة مثل دقات الطبول. شعرت بالرعب.. صوت أبى أجش. شديد الوقع على الأذن. أبى مهيب حقاً إذا تحدث، ومخيف إذا غضب. أبى فى الخمسين لكنه يملك جسماً قوياً ضخماً. قامته طويلة مستوية، وصدره عريض، مرفوع الرأس، بصره إلى الأمام دائماً وهو يمشى، قلما ينظر فى الأرض. يكسو ذراعيه شعر أسود كثيف. كنت وشقيقاى محسن وماهر، وشقيقاتى الثلاث تماضر وفوزية وفريال – نهابه ونخشاه. لم يكن يضحك أو يبتسم إلا نادراً، لا يثنى على أحد منا إذا حقق تقدماً فى دراسته، لكنه كان راعياً صالحاً لمصالحنا فلا يتأخر عن أى طلب نطلبه منه. بل كان فى أحيان كثيرة يغنينا عن الطلب فيعطينا النقود، ويحضر لنا ما يزيد عن حاجاتنا..

(٢)

لم أعد أسمع أى صوت وأنا وسط الفراش أعانى من فزعى. فأدركت أن أبى (منصور الذهبى) غادر المنزل إلى متجره بالخان الكبير .. متجره "دنيا العطارة والعطور" حافل بمختلف أنواع العطور والبخور والأعشاب الطبية. يمتد عمله

من العاشرة صباحاً وحتى التاسعة ليلاً عدا الأحد من كل أسبوع. كان مشهوراً فى عمله ماهراً فى تجارته، يعاونه محاسب وأربعة عمال. يقصد المتجر رجال ونساء وصبايا بعضهم يقطن مدينتنا المباركة بالسيد البدوى، وبعضهم يأتى من الريف والضواحى المتاخمة لمدينتنا المباركة. يمازح الجميع ويحوطهم بالمودة والرعاية..

كم رغبت فى أن يمازحنا أبى فى لقاءاتنا القليلة معه وهو يروى لنا بعض حكايات ألف ليلة للخميسى المنشورة بآخر صفحة من جريدة المصرى. كنا نسعد بوجوده بيننا. لكنه لم يعد يجلس معنا إلا نادرا منذ شهور. كان يقضى بالخارج زمناً طويلاً بعد أن سمعناه ذات مرة يصرخ فى أمى:

- اسمعى.. لا يقدر أحد على منعى من تنفيذ قرارى.. زواجى من نرجس أكيد.. أوصانى توفيق فى مرض موته برعايتها.

- رعايتها تعنى الزواج منها ؟!

- صديقى وأنا أنفذ رغبته.. لابد من رعاية ابنهما صابر..طفل صغير أنجباه بعد عشر سنوات ... نرجس مقطوعة من شجرة.

وحين يعود من سهره المتكرر نكون قد غططنا فى نـوم عميق فلا ندرى عنه شيئاً. وفى الصباح قد نراه ونحن نأخـذ طريقنا إلى المدارس. نشعر أن أبى وأمى على خلاف عميق. كنا نراهما لا يتبادلان الكلام إلا نـادراً ولا الابتسـام. وكـم لاحظت أن أمى يستغرقها الهم والشرود. ولم تكن هى تحدث أحداً ولا تشكو لأى مناء حتى أخواتى البنات اللائى يكبرننـى لم يعرفن شيئاً ولم يجرؤن على التحدث معها عن خلافهمـا. ومع ذلك كانت إذا تحدثت إلى أى واحد منا ترسم على شفتيها ابتسامة واسعة تنم عن الرضا وطيبة القلب. كم أحـب وجـه أمى الحنون المبتسم .. وكنت أشـعر نحـو أبـى – رغـم صرامته– بالرثاء والحزن. كنت أجده وحيداً بيننا لا سيما فى الشهور الأخيرة. كانت صرامة وجهه تدل علـى أن قـراراً خطيراً يخص أمى يوشك على التنفيذ. كم تمنيت ألا يحـدث هذا القرار الخاص بأمى..

لم أعد أسمع أى صوت ولا حركة، فغـادرت الفـراش. أسرعت إلى حجرة أمى. بابها مفتوح.. رأيتها تجلس فى مقعد يقابل السرير النّيكل الكبير بتاجه الملكـى، يكسـو وجههـا

الأبيض المستدير أمارات الوجوم والشرود بينما انسدل على كتفيها شعرها الأسود الناعم الطويل.. فى أنفى دائماً عبق شعر أمى. كم انسدلت منه خصلات على جبهتى وأنفى كلما احتوتنى بيديها أو توسدت حجرها بقصد النوم .. شارفت أمى على الأربعين لكنها ماتزال مشرقة الوجه .. مبتسمة الملامح. كانت جميلة، تعكس عيناها العسليتان رغم الشرود الحزين صفاء أحب دائما أن أراه وأتأمله وأتطلع إليه..

اقتربت منها فانتبهتْ، مدت ذراعيها نحوى بلهفة واهتمام. دلت نظراتها القلقة على أنها أدركت أننى سمعت أصواتهما التى توقفت منذ قليل، أسرعتُ إلي الذراعين الممدودتين.. كنت فى العاشرة من عمرى،.وكنت ما زلت أسمع دقات قلبى.. ألقيت بنفسى بين ذراعيها. احتوتنى، ضمتنى إلى صدرها بحنان. كنت مازلت خائفاً ومزعوراً ومرتعباً. أحسست بضمتها قوية؛ أرادت تهدئتى. نشجتُ فتأكدتْ من أننى سمعت الأصوات أو جزءاً منها. ربتت أصابعها ظهرى، فألقيت برأسى على صدرها الحانى. ربتت مرة آخرى ظهرى، ثم أبعدتنى قليلاً لترى وجهى الباكى، مسحت دموعى وقالت تهدئ من انفعالى:

– هاشم.. البكاء للبنات والنساء.

ثم واصلت تقول وهى تبتسم:

– استعد يا هاشم. سنذهب معاً لزيارة الست شكرية.. دعتنى إلى زيارتها.

لم ابتسم؛ شعرت بهمّ يزحف إلى قلبى، أحسست أن للزيارة علاقة بخلافها مع أبى. وقالت :

– ولكن بعد أن توقظ أخويك وأخواتك لتناول الإفطار.

طغى على إحساسى بالهمّ شعور بالفرح عندما ذكرت أمى اسم شكرية؛ فزيارتنا لها تعنى لى الكثير.. أجد فى منزلها ما يسرنى من لعب ومشاهد جديدة، أخالط أولادها مجدى وشوقى وليلى .. ليلى تخصنى بالاهتمام كلما جمعنا مكان. أحب ليلى وتحبنى. كلانا منجذب إلى الآخر، وأخصها بالرعاية عندما تحضر مع أمها لزيارتنا..

اتجهت إلى غرفتى فأيقظت أخوىّ محسن وماهر ثم طرقت باب حجرة أخواتى البنات: تماضر وفوزية وفريال كما طلبت أمى. كانت فرحتى غامرة وأنا أوقظ الجميع، وكنت أستعجل الخروج مع أمى، ولذلك لم أشعر بإجراءات إعداد

مائدة الإفطار، وتناول الطعام وشرب الشاى؛ كنت أفكر فـــى أمر واحد هو أننى سألتقى بليلى التى تمـــاثلنى فـــى العمـــر وتقاربنى فى الميول.. لديها قفص عصافير ملونـــة، وقفـــص ببغاء أحب رؤيته ومداعبته، كنا نضحك وهو يقلد أصـــواتنا، وكانت ليلى تقدم لى قطعاً من شيكولاته طعمها لذيذ، لذلك لـــم يكن غريباً أن سارعتُ إلى ارتداء بنطلونى القصـــير البنـــى وقميصى البيج إيذاناً باستعدادى لمرافقة أمى فـــى زيارتهـــا المفاجئة التى توقعتُ أن تضاعف من همّى الذى يكمن تحـــت فرحتى..

(٣)

كانت خطوات أمى سريعة متوترة ونحن ننعطـــف مـــن شارع النادى إلى شارع البحر. تابعتها فى ســـرعتها دون أن أشكو، ولم أشعر بأى ألم فى قدمىّ رغم طول المســـافة إلـــى منزل الست شكرية بشارع القنطرة. لم أفكر فى شىء إلا فى فرحتى بلقاء ليلى.. وكنت أرى يد أمى اليسرى بـــين الحـــين والآخر تمتد إلى يدى اليمنى وتضغطها برفق فأصعّد بصرى إلى وجهها الأبيض المستدير، فأرى فـــى ملامحـــه أمـــارات الحيرة وعلامات الشرود..

ربما تساءل عقلى الصغير: هــل لســيرنا الآن علاقــة بشجار أبى وأمى اليوم؟. أيكون زوال الجفاء بينهما على يــد الست شكرية؟. هل الست شكرية طرف فى موضوع يســبب حيرة أمى وغضب أبى؟. وربما تساءلتُ أيضاً: لماذا حرصتْ أمى على اصطحابى دون محسن الذى يكبرنى بسبع سنوات؟. أو ماهر الذى يكبرنى بست سنوات؟.وأحياناً كنت أتساءل عن هذا الهمّ الذى يشغل بال أمى فلا توجه إلىّ كلمة منــذ بــدأنا السير فى شارعنا " شارع كليوباترا " . اكتفتْ بضغط كفــى الأيمن برفق بين الحين والآخر، وكنت مع كل ضغطة أرفــع بصرى إلى وجهها المستدير.. ومرة لاحظت ونحــن نقطــع شارع البحر دمعتين فى عينيها لا تسيلان؛ فشعرت أن زيارة الست شكرية اليوم غير مريحة..

انشغلت بأمى تماماً فلم تتوقف عيناى عند أى مشهد مــن مشاهد شارع البحر الواسع الحافل بالحركــة والنــاس، ولــم يجذبنى ما وراء الواجهات الزجاجية من لعب الأطفال، ولــم أنصت إلى الأغانى المنبعثة من أجهزة الراديو بالمحلات على جانبى الشارع، ولم أدقق فى المقاعد الحجرية المتناثرة فــى

الجزيرة الخضراء الممتدة بطول الشـارع.. يجلـس فـوق المقاعد أطفال فى مثل عمرى، وشبان وشابات. لم أدقق فـى أى أحد أو مشهد هذه المرة لانشغالى بهمّ أمى البـادى فـى قسمات وجههـا الأبـيض المسـتدير وعينيهـا العسـليتين الصافيتين..

(٤)

استقبلتنا الست شكرية بترحاب بالغ، عانقتْ أمى بحرارة ثم انحنت وقبلتنى .. مضت بنا إلى صـالة مربعـة فسـيحة أفضت إلى حجرة الجلوس الذهبية القريبة من الشرفة الكبيرة، وطلبت من ليلى ذات السنوات العشر أن تصحبنى إلى الشرفة لمشاهدة العصافير الملونة، ومداعبة الببغـاء الأزرق المقلـد لكافة الأصوات..

المسافة من الشرفة إلى حجرة الجلوس قصيرة تسمح بأن أرى وأسمع ما يقال، بينما أشارك ليلى مداعبة الببغاء العجيب والعصافير الصغيرة تتقافز داخل قفصها البرتقـالى الأنيـق. أتاح لى قرب المسافة أن أرى وأسمع بوضـوح.. فسـمعت الست شكرية تقول لأمى:

- ولا يهمك .. سيرجع إليك نادماً.

لم تعقب أمى على قولها. فأردفت الست شكرية قائلة:

- فاتحتيه فى الموضوع؟ .. تكلمتِ معه بصراحة؟

أجابت أمى بلهجة خالية من الشكوى :

- تكلمت معه لكن دون إلحاح ولا ضغط.

- يعرف الموضوع أحد من إخوتك؟

- لا.

- يشعر الأولاد بشيء؟

- لاحظوا جفاءه وتأخره المتكرر، وربما سمعوا أحاديثنا..

أدركتُ من فورى أن أمى لم تأت للشكوى، وإنما أتت لتسمع من شكرية التى أفصحت أسئلتها عن علم أكيد بسر خلاف أمى مع أبى.. كما أدركتُ أن أمى حضرت اليوم تلبية لدعوة نقلها ابنها الأكبر أشرف الذى حضر إلينا مساء أمس..

قالت الست شكرية :

- أرسلتُ إليك أشرف، لأطلعك على آخر التطورات..

لم تتكلم أمى..

- فرحت لما أخبرنى أشرف أنك قبلت دعوتى..

وأضافت باندفاع :

- بهيرة.. الحق أنه مصمم على الزواج منها..

أطرقت أمى ولم ترد.

- زوجى بكر نصحه. تعب من الكـــلام معـــه يـــا بهيـــرة.

و...قاطعتها أمى بصوت هادىء رزين وهى مطرقة:

- رغم أنه كان يشجعه كما عرفت منك..

- كان يمزح معه ..

فعقبت أمى بنفس الهدوء والرزانة:

- انقلب المزاح إلى جد يا شكرية !

فأسرعت شكرية قائلة:

- ولايهمك .. زوبعة وتنتهى يا بهيرة..

لاحظت أن أمى قد اشتد وجومها وتواصـــل شـــرودها؛ فغابت من نفسى الرغبة فى معاكسة الببغاء . لم أعد أضحك وهو يقلد صوت ليلى ولا نظرت فى قفص العصافير الملونة، ورأيت شفتى ليلى تنطبقان وتنفرجان بالكلام دون أن أسمعه. ضقت بكلامها وبالببغاء وبالعصافير الملونة، وشعرت للمـــرة الأولى أن هذا المسكن ضيق للغاية رغم اتساعه.. ورغبـــت فى أن نغادره الآن..

قرأت أمى على وجهى أمارات القلق والسهوم.. نهضت وأمسكت بيدى. حاولت شكرية أن تستبقينا للغداء، لكنها اعتذرت بشدة وخرجنا.. وجدت أمى تهبط درجات السلم بسرعة، ولم تخفف من سرعتها إلا عندما ابتعدنا عن المنزل بمسافة طويلة. وأثناء سيرنا كنت أسمع صوت شهيقها وزفيرها.. كانت منفعلة، ولم أعرف كيف أهدئ من انفعالها إلا بالضغط على كفها الأيسر..

(٥)

لم تسلك أمى طريق البحر الذى أتينا منه. سلكت طريقاً آخر قرأت لافتته: "شارع البورصة"، ثم انحرفت منه إلى شارع درب الأثر. تابعت فى شرفات منازله أطفالاً يشاهدون حركة المارة وبجوارهم أمهات وآباء. رأيت حركاتهم عادية هادئة، ووجوههم واثقة مطمئنة. تذكرت قلق أمى وسرعة نزولنا من منزل الست شكرية نقطع درجاته الثلاثين دون توقف.. تذكرت إخوتى حين تجمعنا موائد الإفطار والغداء والعشاء دون أن يكون معنا أبى الذى نحبه ونخشاه..

أفضى بنا درب الأثر إلى ميدان السيد البدوى . طالعت المآذن والقبة الكبيرة ونحن نقترب من الميدان الواسع. أبصرت فى واجهة المسجد باباً كبيراً مفتوحاً وعلى يساره باب صغير يقف فى مدخله شيخ يعلو وجهه نور، يرتدى ملابس بيضاء وعمامة خضراء.. قصدت أمى الباب الصغير. خلعت الحذاء وطلبت منى أن أحاكيها.. دخلنا من الباب الذى يؤدى إلى المقام الأخضر. لمحتُ ابتسامة راضية بوجه الشيخ ذى الملابس البيضاء والعمامة الخضراء وهو يهز رأسه مرات بالموافقة دون أن يثبت فينا عينيه الصافيتين. قصدت أمى الضريح القابع فى مقصورة محاطة بنحاس لامع مشغول. وقفت تتمتم بكلام لم أسمعه. تخاطب به ساكن الضريح.. اجتذبتنى رائحة البخور والعطور ونسمات الهواء الباردة للحظات مالبثتُ بعدها أن تابعت أمى وهى مستغرقة فى دعاء صامت طويل.. لم أجد ما أفعله سوى التدقيق فى الضريح الذى يستقر خلف المقصورة ذات النحاس المشغول، بينما سمعت إلى جوارى أصواتاً ينادى أصحابها ساكن الضريح:

- مَدَدْ يا سيد يا بدوى .. مَدَدْ.. مَدَدْ .. اقض حاجتى وفــرّج كربى ..

فهمستُ بدورى:

- يا سيد .. يا بدوى .. فرّج.. فرّج.. كرب أمى..

طمعت أن تحل بركة البدوى فيصالح أبى أمى. أنا أخشى أبى . لكنى أحبه وأحب أمى، وتمنيت أن تجمعنــا بــالمنزل ليالى الصيف والشتاء وهو يضاحكنا ويسامرنا..وتمنيــت أن يحكى لنا قصص ألف ليلة وليلة..ويكلم أمى وتكلمه، ويبتســم لها وتبتسم له..

فرغت أمى من تمتماتها فأمسكت بيدى وغادرنا المكــان المعطر. اتجهنا إلى الباب الذى دخلنا منه. لاحظــتُ الشــيخ المضىء الوجه ترتسم فى وجهه ابتسامة رضــا. وقبــل أن نجاوزه همس قائلاً:

- قولى: يارب ..

فردت أمى بكلمة واحدة :

- يارب..

نظرتُ فى وجهها فرأيت به ابتسامة رضا تماثل ابتسامة الشيخ المشرقة الراضية..

(٦)

فى الميدان وكان الوقت بعد العصر رأيت أمى تتجه إلى شارع مقابل للمسجد، فانداحت فى نفسى مشاعر الرضا والارتياح؛ ففى نهايته منزل عمتى منيرة.. تساءلت ونحن نسرع تجاه العمارة الكبيرة التى يملكها زوج عمتى: هل زيارتنا متفق عليها أيضاً؟. هل أمى على موعد مع عمتى؟. أم أن الزيارة نتيجة قربنا من العمارة ؟. تطلعت إلى وجه أمى فرأيت سيماء الثقة والاطمئنان. أدركت أن أمى على موعد مع عمتى . شعرت براحة عندما فكرت فى أبناء عمتى: نوال الشابة التى تدرس فى الجامعة وإخوتها الثلاثة الذين يقاربوننى فى العمر: أحمد وعاصم وعايدة ؛ لديهم ألعاب ساحرة: قطار يجرى على قضيبين، وسيارات ملونة مختلفة الأشكال والأحجام يتحرك كل منها بزنبلك، فضلا عن حوض زجاجى بداخله ماء تسبح فيه أسماء الزينة الملونة. ابتسمتُ وأسرعت أصعد السلم خلف أمى إلى الطابق الثانى،

وأخذت تغيب من ذهنى صور زيارتنا لمنزل الست شـــكرية، كما تباعدت صور العصافير والببغاء، ولم أعــد أفكــر فـــى ليلى..

(٧)

منزل عمتى منيرة عامر بالخير والحب والحنان.. أشعر بحنانها حين تقبلنى أو تربت ظهرى، وكثيراً مــا استســلمت لكفيها وهى " ترقينى ". عمتى تحب أمــى، وأمــى تحبهــا. استقبلتنا بترحاب بالغ وهى فى كامــل هيئتهــا؛ فأيقنــت أن الزيارة اليوم ليست صدفة بل بموعد سبق الاتفاق عليه. أقبلتْ علىّ وأقبلت عليها، انحنت وقبلتنى، ثم احتضنت أمى بحفــاوة شديدة وحرارة بالغة وقالت :

- أهلا يا بهيرة.. أهلا بالجوهرة.

ثم وجهتْ كلامها إلىّ قائلة :

- نوّرت يا هاشم..

- ...

نظرتُ إليها ولم أرد، لم أعرف ماذا أقول، فأجابت أمـــى عنى قائلة:

- الله ينوّر عليك يا منيرة..

ابتسمت عمتى ونادت عايدة ودعتنا إلى اللعب معاً بالقطار، وبالسيارات الصغيرة فى ركن الصالة الذى يبتعد قليلاً عن موقع جلستهما.. فانطلقنا إلى اللعب، وبقربنا حوض سمك الزينة...

وبين الحين والآخر كانت عيناى تتجهان إلى أمى وعمتى وهما تتحدثان بحديث غير مسموع ..لاحظت أن وجه أمى لا يبتسم . لاحظت عينيها شاردتين فى سقف الصالة وأحياناً أخرى فى الفضاء الظاهر من الشرفة المجاورة لهما. ومرات أراها تتابعنى.. كانت بوجه أمى علامات ألم وأسى. كانت تهز رأسها هزات تدل على الأسف، وكانت نظرات عمتى مفعمة بالحنان والتعاطف. وكنت كلما شعرت بالاضطراب أندفع إلى مشاركة عايدة اللعب والنظر إلى سمك الزينة وهو يتحرك صعوداً وهبوطاً..

التفتُ فجأة إلى الفراغ الظاهر من الشرفة، وجدته قد أظلم وإن خفف من ظلامه إضاءاتُ الميدان وأنوار المآذن والقبة الكبيرة. أخرجنى من تأملى وشرودى صوتٌ.. هو

صوت أبى. رأيت أبى يمشى فى الصالة بخطوات ثابتة فدق قلبى بعنف، وكانت بجواره ابنة عمتى الكبرى نوال، ونهضت عمتى ونهضت أمى. سلم أبى على عمتى ولم يسلم على أمى، ثم جلس فى مكان بالقرب من عمتى، ووضع ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى، بينما اتخذت نوال مكانها بجوار أمى..

شعرت بدقات قلبى تزداد عنفاً؛ توقعت أن يحدث كلام وجدل، وتندلع أصوات حادة. توقفتُ تماماً عن اللعب .. تجمدتُ فلم أعد أشارك عايدة أىّ لعبة؛ أحسست أن خطراً هائلاً يوشك أن يمس أمى . انصرفتُ بأذنىّ وعينىّ إلى المكان الذى سرعان ما تفجر بالكلام والجدل والوعيد والتهديد. أصختُ .. ثم مشيت قليلاً حتى اقتربت من مجلس عمتى بحيث لا يرانى أبى الذى سمعته يقول:

- محاكمة يعنى ؟!

فقاطعته عمتى قائلة :

- ولا محاكمة ولاحاجة.. يا منصور .. بهيرة جوهرة.. جوهرة يا منصور..

لم يرد أبى. لم يعترض. فواصلت عمتى:

- لا يوجد فى الدنيا مثلها.. لا تستحق أن يحزنها أحد.

رأيت أمى تبحث بنظراتها عنى.. وقالت نوال تؤكد ما قالته عمتى :

- خالى .. خالى بصراحة هذه أمى وليست مجرد زوجة خالى.

فصاح أبى غاضباً وهو ينهض :

- لا أحب أن أسمع أى كلام . سأكتب الليلة على نرجس، ولن يمنعنى أحد..

ثم استدار يقصد الباب ضارباً الأرض بقدميه الثقيلتين ولم يشعر بى رغم أنى كنت فى طريقه.. وفتح الباب ثم شده خلفه بعنف، فحلّ صمت على المكان راق لى، ولكن وجدتنى أرتجف وأنا أمشى إلى أمى .. اقتربت منها، ربتُ كتفها، نظرت إلى مبتسمة ولم تتكلم . نهضتْ وسلمتْ واتجهت إلى باب الخروج الذى شده أبى خلفه بعنف، رغم محاولات عمتى لإبقائنا بعض الوقت. هبطنا درجات السلم العشرين. ولم أعد أتذكر سمك الزينة ولا القطار ولا السيارات التى تملكها عايدة..

بعد أن احتوانا الشارع اتجهتْ أمى مسرعة بى إلى الميدان. كان يسطع بأنوار النيون، نظرتُ إلى المآذن والقبة الكبيرة. تمنيت أن تدخل أمى إلى المقام الأخضر ذى الرائحة العطرة.. تمنيت أن يلامس كفّاها النحاس المشغول الذى يحيط بالمقام .. كنت أصعّد نظرى إلى وجهها الحزين.. أسفت لأنها لم تدخل لتلامس النحاس المشغول وتتمتم حتى يزول الحزن من وجهها، لكنها أسرعت وهى تقبض بكفها الأيسر على كفى الأيمن بخطوات ثابتة إلى شارع درب الأثر الذى أفضى بنا إلى شارع البورصة.. كان الشارع غاصا بالناس والأسواق والألوان، ولم أشعر برغبة فى التوقف؛ كنت مشغولاً بحزن أمى. وكنت أحس بضيقها ينسكب فى صدرى.. ورأيتنى أمسك بيدها وأهزها. لم تنظر إلىّ .. ولكن عند تقاطع شارع البورصة بشارع البحر توقفت أمام عربة "تين شوكى"، اشترت لى ثمرتين، أعدهما البائع، أكلتهما واحدة بعد أخرى ولم تأكل هى، ثم تحركتْ فتحركتُ، وبعد خطوات وجدتها تنظر إلى بعينيها الحزينتين الصافيتين وتقول:

- هاشم.. أنت تعبت معى اليوم.. تعبت..

حين رأيت الدموع تسيل من عينيها الصـــافيتين دون أن يصدر عنها صوت أو أنين - أجهشت بنشيج متواصل أوجع صدرى ولم يوقفه أحد.. وقلت بصوت متقطع وأنـــا أتشـــبث بكفها الأيسر:

- " أنت " .. جوهرة .. عمتى قالت: إنك .. جوهرة.

فقبضتْ بقوة على كفى الأيمن.. ومضت بى فى خطوات ثابتة، لنتجه إلى شارع النادى المؤدى إلى شـــارع كليوبـــاترا حيث منزلنا الصغير الذى كنا قد غادرناه منذ الصباح..

خبر عاجل..



خبـــر عاجـــل..

تحول "خاطر الماوردي" قليلا عن مشـــاهد بـــالتليفزيون أسهدته وحرمته من النوم. ليلة أمس ظل ساهرا بعقل يقـــظ، وحس نشط، وقلب واجف ممتلئ بالغيظ أمام مشاهد التليفزيون المسبوقة دائما بكلمتي (خبر عاجل).. تحول مضـــطرا عـــن الشاشة لأن صورة خطيبته الحسناء ألحت على ذهنه تـــذكره بأن موعد حديثهما في التليفون قد حان.. منذ أن خطبها الشهر الماضي وهما يبدءان يومهما بحديث فـــي العاشـــرة صـــباحا وآخر في التاسعة مساء..

مد يده إلى السماعة بلهفة مصحوبة بابتسامة . رفعهـا برهة ثم أعادها إلى مكانها بغير ابتسامة. اكتشف أنـه نسـي الرقم .. حاول أن يتذكره دون جدوى . امتدت يده إلى رأسه المصدّع الموشك على الانفجار. حاول مرة ومرة ومـرة أن يتذكره فلم يوفق. واكتشف أيضا أنه نسي اسم خطيبته، واسم أسرتها، ورقم المنزل الذي تقطنه، واسم الشارع الذي يضمه، والحي الذي يتبعه المنزل..

لم يكن بحاجة إلى بذل جهد كبير لتعليل حالته التي لـم تحدث من قبل. يعرف تماما أن رأسه مجهدة بتوالي مشـاهد التليفزيون وأصوات المراسلين والمحللين التي بثتها ليلة أمس – وما تزال– القنواتُ المحلية والفضائيات العربية والعالمية؛ قنابل وصواريخ طائرات ذات نجمة تلمع تحت زرقة السماء، وعمارات منهارة فوق قاطنيها.. وثمة أذرع وسيقان بـارزة من تحت الأنقاض عجزت فرق الإنقاذ عن جذبها بينما نجـح البعض الآخر في جذب عدة جثث لأطفال صـغار ورضـع تعفرت أجسادهم بتراب ورمل الأسقف والجدران المنهـارة. ضربت العمارات صواريخُ طائرات تحمل كل منهـا نجمـة ظاهرة للمشاهد المراقب..

رجع خاطر الماوردي بذهنه وفكر في المشكلة التي حلت به فجعلته يرجئ الاتصال بخطيبته. وتساءل: كيف أنسى اسمها؟ ! . ليست مجرد خطيبة. إنها رفيقة طفولته وصباه قبل أن تنتقل مع أسرتها إلى شارع مراد، وزميلته في كلية جمعتهما وتخرجا فيها معا. كيف ينساها وينسى اسم والدها ووالدتها واسم عائلتها!.. ومع ذلك يتذكر الآن أنه دعاها مع والديها لتناول الشاي، كما دعا عمه، وخاله، وعمته.. تطلع إلى الشاشة التي تضم الدمار والموتى وتساءل: هل أصابه "الزهايمر"؟! أيمكن أن يصيب الزهايمر المرء وهو في هذه المرحلة المبكرة من العمر؟! وصاح بصوت محتج لم يسمعه سواه: كيف يصيبني الزهايمر وأنا لم أبلغ بعد الخامسة والثلاثين؟!..

مرة أخري جذبه التليفزيون: "خبر عاجل".. قصفت طائرة عمارة انهارت فوق رؤوس سكانها، و"قصفت طائرة جنازة كانت تشيّع الأموات". غيّر القنوات، وجد الخبر العاجل في قنوات كثيرة.. بث المراسلون العرب والأجانب المزيد من المشاهد. وثمة محللون يؤدون واجبهم بهدوء ورزانة.. وقال

لنفسه: من ينقذ الأطفال من الدفن تحت الأنقاض؟!، أيمكن أن تحل المعجزة ويتوقف هذا العبث الشيطاني؟ من يستطيع إيقاف الحرب؟!..

ازداد شعوره بوجع رأسه.. رأى يدا تشق رأسه وتمسك بمخه وتقبض عليه بعنف ثم تعصره عصرا، وتكوّره إلى كرة صغيرة تشبه كرة "البنج بنج" لا .. بل تشبه حبة العنب؟!..

استمرت المشاهد المثيرة وتواصل كلام المراسلين والمحللين، وتسابق مراسلو القنوات في بث صور لقاءات ونزوح جماعي إلى أماكن أخرى ما تلبث أن تصيبها صواريخ الطائرات المغيرة. وصاح لنفسه : من يمكنه وقف هذا العبث؟! . وضع رأسه بين يديه والسؤال يتردد في داخله مستفزا حبة العنب. شعر بضآلتها أمام المشاهد العاتية التي توشك أن تفجرها.. أطرق بحزن وأسف نالا من كيانه المتهالك..

حضرت شقيقته الصغرى ابتسام ذات السنوات العشر. قالت بصوتها الرفيع كلاما لم يركز ذهنه فيه .. لكن تبين منه أن خطيبته رحاب جاءت مع أبويها للزيارة حسب الموعد.

ورغم نسيانه الآن أنه حدد موعدا من قبل لأحد – فإن شعورا بالارتياح قد نشط في نفسه لهذه الزيارة. رحاب تجلّ عن الوصف. نعم تجل عن الوصف.. كانت الساعة تقترب من السابعة وهو يستقبل نسمات خريفية باردة هبت من النافذة المفتوحة أنعشته، لكنه عاد يقول لنفسه لا أذكر أنني حددت موعدا لأحد. وقالت ابتسام:

– كلهم في الصالون، ومعهم بابا وماما..

نهض بجسد نال منه السهر والأرق والإرهاق، جذب بصره بصعوبة من شاشة التليفزيون؛ كانت صور الدمار والموتى والجرحى تحتل الشاشة أثناء النشرات الإخبارية أو تحليلات وتعليقات ضيوف البرامج المواكبة للقصف والتدمير.. وكانت دائما تحلق طائرات بنجمات سداسية دون رادع، تقصف ما فوق الأرض من مبان ومزارع وحدائق وسهول ووديان وطرق وجسور وبشر يجرون ويسعون إلى الاحتماء وهم يتطلعون إلى الطائرات المغيرة. وقال في نفسه: إن أصوات الانفجارات شديدة للغاية تطن في أذني بقسوة بالغة.. وها هو رجل تسيل من وجهه الدماء يحمل جثة ابنته ذات السنوات الخمس، جذبوها بصعوبة من تحت أنقاض

العمارات المدمرة .. ها هو يصرخ عارضا أمـــام مراســـلي الصحف والقنوات الفضائية- الجثة الصغيرة المشوهة: الرأس مهشم، والوجه غير واضح المعالم، والشـــعر معفـــر بلـــون الرماد. اكتفي الأب بكلمات ست اغتصبها من فمه الذي يضج بصيحات الاستغاثة والقهر:

- كيف يرضى العالم بهذا الدمار والقتل؟!..

وقالت ابتسام وهي تقدم له مظروفا وهو في طريقه إلى غرفة الصالون المذهبة:

- سلمه لي رجل غريب الشكل بملابس غريبة، وطلب منـــي بلهجة غريبة أن أعطيه لخاطر الماوردي، ورأيته يقفز إلى بئر السلم بدلا من الهبوط فوق درجاته..

تأمل المظروف وقرأ: السيد خاطر الموردي . الجيـــزة ١٣ شارع خوفو . فض المظروف عن ورقة واحدة تتوسطها عبارة بخط أسود بارز: (أمامكم عشر دقائق لإخلاء العمارة.. العمارة قابلة للتدمير) . وقالت ابتسام:

- انضمت إلى الصالون عمتي فضيلة وزوجها وأولادهـــا، وخالتي شادية وزوجها وأولادها، وجاء من قبل عمي فـــؤاد، وخالي شاكر..جاءوا جميعا ليسلموا عليك..

ترك المظروف وأخذ الورقة المحذرة. هرع إلى الصالون الذهبي.. كانوا جميعا في غاية الأناقة والوسامة والبهاء. وكان بالصالون تليفزيون كبير الحجم تتغير قنواته بريموت كنترول يمسكه خاله شاكر؛ نفس صور الدمار والطائرات المغيرة ذات النجمات السداسية تحلق في الفضاء الرمادي تحت زرقة السماء.. تطلق الصواريخ وتسقط القنابل فوق المباني والسهول الخضراء والجبال والسيارات المزعورة ..

عندما انتبهوا لدخوله نهض صغار السن، وبقي في مقاعدهم كبار السن. وقف بالباب صائحا فيهم وهو ينشر الورقة السوداء أمام عيونهم:

– يجب أن نغادر جميعا العمارة حالا.

نهض الآخرون كبار السن، ونظروا نحوه بعيون ذات معنى واحد لم يفهمه.. فواصل يصرخ فيهم محذرا:

– العمارة معرضة لقصف صاروخي الآن.. يجب مغادرتها فورا.

هرعت نحوه خطيبته الحسناء ولحقها أبوه وعمه وخاله وعمته وأمه المذعورة، وصرخت لصراخه شقيقته الصغرى ابتسام، فعجب لصراخها، كما عجب لاندفاع جلساء الصالون نحوه بدلا من أن ينفذوا ما أمرهم به، وعجب أكثر لما تقدم منه والده وربت ظهره بحنان وقال:

- الحرب ليست هنا يا خاطر.. الحرب ليست في الجيزة. الحرب على شاشة التليفزيون..الحرب في لبنان..

نظر إليه باستغراب وقال متسائلا:

- فلماذا التحذير بأننا يجب أن نغادر العمارة فوراً ؟!

فقال الوالد بصوت وقور:

- أي تحذير؟!، ومن أين جاء؟ ومن أرسله؟..نحن في الجيزة يا خاطر.نحن في مصر..

- سلمه غريب على الباب لابتسام..

فنفت ابتسام وهي تنشج أن يكون أي إنسان قد سلمها شيئا، فأردفت الأم التي احتضنته بحنان:

- أنت مرهق يا خاطر يجب أن تستريح..

وقالت رحاب:

- تعال يا خاطر نتحدث قليلا. الشاي في انتظارك. أنت دعوتنا لتناول الشاي.

قبل أن يستجيب ليد رحاب دوى صوت هائل .. ثمة صاروخ وصاروخ نفذا من الشاشة، ليصعد الأول إلى السقف فيدمره، بينما اتجه الثاني إلى أرض الصالون واخترقه. في ثوان رأى العمارة تنهار وتحولت إلى أنقاض دفنت كل من بالصالون..

رأى نفسه يخرج من تحت الأنقاض وحده؛ فلم يكن بالمكان المنهار سواه . وحاول أن يجذب ذراعا بارزا هو لرحاب ، وآخر لوالده ، وثالثًا لوالدته، ورابعًا لابتسام، وخامسًا.. وسادسًا .. لكنه عجز عن جذب أي ذراع من تحت الأنقاض، فصعد فوقها واستغاث بصراخ ارتد صداه إليه.. بدا أن صوته لم يصل إلى أي أحد. فقال لنفسه: الظاهر أنه لم ينج أحد سواي. ودفعه الصمت إلى مغادرة الحطام فهبط من قمته، ليجد لافتة زرقاء في نهاية عمود رفيع.. (شارع خوفو). وتحرك قليلا واستنجد برجال ونساء يمرون به. لكن لم يلتفتوا إليه . فبدا له أنهم لم يسمعوه. فتساءل كيف لم يسمع أحد صراخي؟. ولماذا اختص الصاروخان عمارتنا بالقصف

العنيف دون سواها من العمارات المجاورة والمقابلة؟. أين رجال الإنقاذ ليقوموا بواجبهم؟! ؛ ما يزالون تحت الأنقاض.
ووجد يده تمتد نحو شاب يعبر به، يعرفه جيدا، لكن لا يتذكر اسمه. إنه من سكان العمارة المنهارة، يمشي بزهو واختيال. واضح أنه نجا مثله من الدمار، استوقفه وسأله. لم يتذكر اسمه:

- كيف نجوت من الدمار؟

أجاب الشاب على الفور:

- أي دمار؟
- العمارة قصفتها طائرة بصاروخين. أنا نجوت بمعجزة..
- أي عمارة ؟..
- عمارتنا..

فاستدار الشاب وأشار إلى العمارة القائمة:

- هذه عمارتنا كما هي..

نظر إلى واجهتها باستغراب شديد.. فقد رأى في الشرفة جميع جلساء الصالون الذهبي، يلوحون له ووسطهم رحاب تدعوه إلى الصعود.. فقال لنفسه:

- ماذا جرى لي؟ العمارة قائمة والأقارب أحياء يلوحون لي. ماذا دك الصاروخان إذن؟ وأين آثار الدك؟ أين الأنقــاض؟! ماذا جرى لي؟!.

صعّد خاطر الماوردي بصره إلى شرفة الطابق الثــاني تضم "رحاب" ووالديه وأقاربه ووقفت بجوارهم ابتسام. وكانت رحاب متوردة الوجه تنظر إليه بحنان. رمقهم جميعا بنظرات زائغة ووعي شارد. وبدلا من أن يستجيب لــدعواتهم غــادر الشارع حيث انحرف إلى الشارع الرئيسي: شارع الأهــرام، اجتاز خمس عمارات ثم وقف أمام العمارة السادســة. تأمــل لافتة مضاءة بالنيون بخط كبير، مثبتة بشرفة الطــابق الأول. يتوسط اللافتة كلمات بارزة: " عيادة الدكتور أنور الكاشــف أخصائي الأمراض النفسية والعصبية". قرأ اللافتة مرات بعقل شارد متعب وقلب مجهد وبصر زائغ. شعر في لحظة بحاجة ملحة إلى دخول العيادة. كم رغــب قبــل الآن فــي مقابلــة الطبيب، كم حاول الدخول أكثر من مرة، أراد أن يقابله ، لكن كان يثنيه شعور داخلي بــرفض المحاولــة .. الآن وجبــت الزيارة. فاندفع نحو الباب المفتوح تعلو إطاره اللافتــة بخــط

صغير ليجد نفسه أمام ممرضة حسناء تماثل رحـــاب . إنهـــا رحاب . ناداها باسم رحاب:

- رحاب. أنا تعبان جدا .. خذيني إلى الطبيب يا رحاب..

نظرت إليه الممرضة الحسناء بإشفاق . فقال لها:

- ظننتك تحت الأنقاض. ضرب العمارة صاروخان. لكنـــي رأيتها كاملة. الحمد لله أنك بخير .. سنرحل إلى المطـــار يـــا رحاب بعد ساعة .. سنطير إلى باريس معا..

قالت الممرضة الحسناء وهي تمسك بيده وتتجه به إلى غرفة الطبيب:

- الدكتور أنور سيراك حالا.. من فضلك اجلس.

غابت الممرضة قليلا ثم عادت يسبقها الـــدكتور أنـــور الكاشف الذي جلس وتوسط المكتب راسما ابتســـامة صـــافية واسعة تشبه ابتسامة الممرضة الحسناء، صافي الوجه، طيب الملامح. عندما نهض خاطر طلب منـــه الطبيـــب الجلـــوس فاستجاب على الفور . سأله الطبيب دون أن تزايله الابتسامة الودودة وهو يمسك بقلمه - سأله عن الاسم والســـن؟؟ فلـــم يجب. فقط نظر إليه بشرود ولم يجب. فقال الطبيب:

- خيرا بماذا تشكو؟.

فاسترسل بنصف وعي وعقل شارد يروي مـــا يتـــذكره بينما الطبيب يسجل ويتابعه بعناية شديدة. روى له ما حـــدث صباح اليوم عقب سهرة طويلة أمام التليفزيون يشاهد خلالهـــا المذابح الجماعية، والقصف المـــدمر للعمـــارات والجســـور والطرق.. ثم سكت وأمسك رأســـه بكفيـــه. وقـــال الطبيـــب يستحثه:

- أكمل ..استمر..

فقال بوهن شديد:

- رحاب دعتني إلى الصعود. العمارة مدمرة. رحاب وعمي وخالي تحت الأنقاض. كل شيء جاهز: سنسافر إلى باريس. خرج الصاروخان من الشاشة، أحـــدهما ضـــرب الســـقف، والثاني ضرب الأرض. يركضون فـــي الأروقـــة الأنيقـــة. الدبلوماسيون يركضون، يجتمعـــون فـــي قاعـــات مكيفـــة. الابتسامة لا تفارقهم. وزراء الخارجية يتحدثون في مجلـــس الأمن .ثمة مشاريع لوقف إطلاق النار .لكن هناك دائما من لايريد. أنت يا سيدي مليح الوجه ووسيم أنت يا سيدي واثق

بنفسك، الوعد الصادق ، مظاهرة الأزهر كانت غاضبة. مظاهرات حاشدة في العواصم العربية والأوروبية. رحاب تنتظر عودتي. لنذهب معا إلى المطار.لم أر أبى وأمي عقب تدمير العمارة. ظهرا بالشرفة وبجوارهما رحاب.و....

– أشعر بصداع شديد يا سيدي.عالجني من فضلك..أنت قادر على شفائي.

أمسك خاطر الماوردى رأسه وضغط على الجانبين بكفيه..ثم صاح بشدة الألم وهو ينظر إلى الطبيب:

– رأسي ينفجر ..رأسي ينفجر الآن..

استحثه الطبيب على مواصلة الكلام. لكنه لم يستطع أن يضيف حرفاً؛ فقد شعر أن مخه العنبة قد انفجر وسال. سال عصير العنبة من أنفه بلون أحمر، أغمض بسببه عينيه، ولم يعد يشعر بما حوله فنهض وغادر الغرفة والعيادة. لم يصادف في طريقه أحدا. بحثت عيناه عن الممرضة الحسناء فلم يجدها. بحث عن رحاب فلم يرها..

استدار إلى الباب الذي خرج منه فلم يجد اللافتة التي قرأها قبل أن يدخل.. رأي بدلا منها لافتة بعنوان غريب:

أين رحاب؟، كيف تغيرت اللافتة ؟ ومتـــى؟. أيـــن الـــدكتور الكاشف؟!.. اقترب من بواب العمارة الذي جلس بجوار بابها ومعه زوجته الريفية الحسناء، تشبه الممرضة وتشبه رحاب. استراح للرجل، وسأله بعينين زائغتين، وهو يشير إلى البـــاب الذي خرج منه:

- كنت مع الدكتور الكاشف في العيادة منـــذ قليـــل.. وبعـــد خروجي من الباب، رأيت لافتة أخرى "الشركة العالمية لقطع الغيار البشرية".

وقف البواب بهدوء، ونظر إليه بإشفاق وقال وهو يشير إلى باب الشقة المغلق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..هذه شقة مغلقة، أصـــحابها خـــارج البلاد منذ عامين. وليس بالعمارة أى عيادة ولا شركة بهذا الاسم.

ألقى نظرة متحسرة على الباب المغلق، وتحـــرك ببقيـــة وعْي مكنته من السير خطوات قليلة.. وبدلا من أن يســـتدير ليعود إلى منزله، واصل السير في اتجاه غابة من العمـــارات رآها تتعرض لقصف صاروخي، بينما ارتســـم أمـــام عينيـــه المجهدتين شريط أحمر بدايته كلمتان.. "خبر عاجل". وبقيته: " قصفت الطائرات خمس عمارات بحدائق الأهرام".



زيـــارة..

زيـــــارة..

منذ الصباح الباكر وهم يواصلون الصخب والضـــجيج. صغاره الخمسة في المسكن الضيق لا يكفون عـــن الصـــياح والشجار واللعب والضجيج. تؤذى أذنيه أصـــواتُهم الرفيعـــة القاسية. يتواصل الإيذاء عندما تنهرهم من آن لآخر -زوجته نجوى؛ شابة في السابعة والعشرين. جميلة ومتسلطة وعنيدة..

يسمع الآن مختلف الأصوات تخترق جدران باب غرفة مكتبه الضيقة؛ تضم مكتبا صغيرا، تجاوره كنبة شازلونج قديمة، وشماعة ملابس، ومكتبة صغيرة معلقة. فتح الباب أكثر من مرة ورجاهم أن يكفوا عن الصراخ والشجار، ثم التفت إلى زوجته الشابة وذكّرها بصوت هادئ بأنه يجد صعوبة كبيرة فى صياغة التقرير، التقرير المالي السنوي لشركة "طنطا للمياه الغازية" كلفه بإعداده عباس الحارثى، مدير الشركة، قال:

- يا نجوى .. التقرير لابد من أن أنتهي منه اليوم.

قال له المدير بصوت آمر متعال خال من المودة في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم قبل انصرافه:

- التقرير يا صابر يكون على مكتبي صباح غد.

امتثل للأمر، ودائما يمتثل صابر الراعى. ينفذ الأوامر والطلبات دون تذمر من الآمر، ومن غير مراجعة للطالب.. كلما فكر في الاعتراض أو الرفض أو التقاعس يدق قلبه دقات منذرة ومحذرة؛ حمله ثقيل، خمسة وأمهم. ومسكن صغير ضيق لا يناسب حركة الصغار وعبثهم البريء ...

يعلم أن زملاءه في الشركة يراهنون دائما على أنه سيوافق على أي طلب أو أمر دون جهر بالرفض أو المعارضة. كيف يرفض أو يعترض وهو يسمع بأذنيه عبارات الثناء وكلمات المديح:

– صابر الراعى رجل حقيقي بمعنى الكلمة....

– كله مروءة وشهامة، وهمّة عالية.

ولذلك يحيلون عليه "واجباتهم" لظروف طارئة؛ فيقبل بدافع الأخوة والشهامة، ولكسب رضاهم ومودتهم، ولإراحة ذهنه من الكلام الكثير، فينعم بمشاعر لذيذة وهو يردد لنفسه: أنا صابر الراعى. رجل بمعنى الكلمة.. كلّي همة ومروءة وشهامة.. وعندما يقوم أي موظف في الشركة بإجازته السنوية سرعان ما يحّول المدير مهام عمله إلى صابر الراعى، الذي يقبل دون تردد وبغير مناقشة. ولأن المسكن صغير ضيق، فإن الأعمال الإضافية لا يمكن أن تنجز على الوجه الأكمل إلا في مقر الشركة، فيبقى في المكتب بينما يغادر الجميع وينصرفون إلى منازلهم أو إلى أي مكان آخر، ولا يعود هو إلى منزله إلا في العاشرة مساء؛ فلا يرى

بالطبع صغاره، فيدخل غرفة نومه ليحتويه -بعد عشاء خفيف- فراش ربما تشاركه فيه زوجته الشابة التي ينسى مؤقتا تسلطها ونظراتها الفوقية...

فتح الباب مرة أخرى ورجاهم الهدوء. يريد أن يفرغ من مهمته التي أوشك على الانتهاء منها. ولكن لم يستجب أحد.. لا يعلمون. صغاره لا يعرفون معنى "التقرير" و"العمل" و"المهمة العاجلة".. وقال في نفسه: الواقع إنني سعيد بعبثهم البريء وبشقاوتهم اللطيفة. ولاحظ أن زوجته ليست معهم، وأن باب غرفة نومه مغلق، وباب الشقة موصد ... وعرف من أكرم أن "ماما" عند الجيران:

- ماما عند طنط "مديحة".

باب شقة مديحة -أرملة لطفي الباجورى- ملاصق لباب شقته.. استاء كثيرا ووقف حائرا أمام باب غرفته. أراد أن يسأل فلم يستطع. قال: ما الفائدة؛ هم لا يعرفون ولن يفهموا مشاعرك. إنهم يجهلون حقيقة ما يجرى..

الظاهر أن الأولاد أدركوا أن أباهم في حالة "غضب" لأنهم صمتوا وهدّأوا من عبثهم البريء شيئا فشيئا، وخففوا

من اللعب والصياح... ازداد استياؤه حين عرف من أكرم أن "ماما" بعد أن يغادر الشقة تخرج وتغلق عليهم الباب بالمفتاح.

– ماما كل يوم بعد خروجك تقفل علينا الباب بالمفتاح ثم تفتحه.

مديحة فى مثل عمره، ولها أربعة شبان، أكبرهم عماد.. فى الثلاثين، ماجن معروف بمغازلة فتيات ونساء المنزل والحارة. كم نبّه نجوى أن تخفف من زيارتها لمديحة، ومرة لفت نظرها إلى ضرورة البعد عن الشبهات، فثارت وهاجت وغضبت منه، ونامت ليلتها مع الأولاد، فاضطر فى الصباح إلى استرضائها والاعتذار عما بدر منه من كلام، وتعهد لها بألا يفتح الموضوع مرة أخرى، وقد كافأته على تعهّده عندما عاد من عمله بكلام وأفعال أسعدته وأنسته مخاوفه وشكوكه. إنه الآن حزين.. حزين للغاية لما سمعه من ابنه البريء..

حين رجعت نجوى وجدته واقفا فى انتظارها وسط الصالة وقد التف الأولاد حوله. لم تكترث بالشرر المتطاير من عينيه، ولم تبال بوقفته المتحفزة؛ تقدمت نحوه بثبات وثقة وقالت بتأن:

- مديحة.. طلبتنى فى موضوع خاص بها.

نظر إليها مليا ولم يعلق. فقط استدار إلى باب غرفتـــه. دخلها وأغلق الباب خلفه فى هدوء. مضى تجاه "الشـــازلونج" وتمدّد. أغمض عينيه فشملته أفكار متزاحمة. قـــال بصـــوت مسموع:

- لايمكن أن أواصل غضبى عليها .

كيف يغضبها وهى التى وافقت على الزواج منه رغـــم بلوغه الستين وتواضع حالته المالية والوظيفية؟!، كما لايمكن أن يجهر بالشكوى فيعرف بهـــا أشـــقاؤه وأصـــدقاؤه الـــذين اعترضوا على فكرة زواجه في هذه المرحلـــة مـــن العمـــر، فضلا عن زواجه من هذه الشابة صغيرة السن. حذروه مـــن الزواج أصلاً، ومن هذه الشابة الجميلة ذات العشرين. رضيت نجوى بالزواج لأن اخوتها أخبروها بأنه يمتلك عشرة فدادين ورثها عن أبيه الراحل منذ عشر سنوات، ولـــن تبـــاع فـــي المستقبل بأقل من عشرة ملايين، حسب تقدير شركة "طنطـــا للإنشاءات العمرانية المتحدة". رضيت نجوى طمعا في أرضه التي ستؤول إليها وإلى أبنائه منها بعد وفاته، وإن كانـــت قـــد أظهرت له عندما خطبهـــا بأنهـــا مبهـــورة بوســـامته وقـــوة

شخصيته، واستقامة عوده، وصلابته. إنه الآن فـي السـابعة والستين، حيث مرحلة نهاية العمر الافتراضى. فكيف -وهـو الرجل الموعود بالملايين، والسعيد فى حياته بالزوجة الشـابة والأبناء الخمسة- يفقد السيطرة على أعصابه فيرتكب حماقـة مصيرها الحزن ومآلها الندم؟!

إن قلبه المولّه لا يطاوعه على الاحتجاج الصـريح، ولا يعينه على الإفصاح عن براكين غضبه. ليس عليك يا صابر إلا أن تلتمس الأعذار، وتسوق المبررات المتواليـة لإراحـة ذهنك، ولإغلاق باب "التحدى" الذى يتسلل من نظرات نجوى الشابة، وتصرفاتها الباعثة على المخاوف والشكوك. ماذا لـو غادرت نجوى البيت نتيجة مواجهتك النظرات والتصـرفات المتحدية؟ هل تُحتمل الحياة بـدون نجـوى وبغيـر هـؤلاء الصغار؟ .. أنعشوا نفسه وملأوا حياته، وأعادوا إلـى نفسـه التوازن الذي كم افتقده قبل الزواج والإنجاب. خمسة ذكـور: أكرم، وناصر، وخالد، ونبيل، وعادل. أنجبتهم نجـوى فـي خمسة أعوام. كم اختال بهم أمام أشقائه الذين ظنوا أنـه لـن ينجب في هذه المرحلة من العمر..

أمل أشقائه فى إرثهم أرضه قد تبـــدد؛ الأرض اتخـــذت وجهة أخرى .. الأرض لنجوى وأبنائه منها. فكيــف يســـمح لبراكين غضبه أن تنفجر بالحمم على أسرته المنعشة؟. مـــن الحكمة يا صابر أن تتحمل وتتحمل، وتظل في حجرة مكتبـــك تاركا الجميع في حالهم وشئونهم ووائدا هذا الشعور المتنامى بالشك والريبة. وقال في نفسه: يحسدنى الجميع على حيـــاتى المزدانة بزوجتى الشابة الجميلة الخصبة، وأبنائى الذين كـــم طال انتظارى لهم؛ فعليّ أن أقنع وأعلن رضاي مهما نـــالتني متاعب العمل والمسكن، وحاصرتنى الهموم والشكوك..

(٢)

ها هو الصخب يستمر، والضجيج يتواصـــل، والـــذهن يتشتت، على حين تبدو الأوراق أمامك غير مكتملة؛ فالتقرير مازال ناقصا، ولا يمكنك إتمامه إلا بقليل من الصمت وبعض الهدوء. فهل يستجيبون لرغبتك ويكفّـــون؟. هـــل يمكـــن أن ينحسر من قلبك تيار الشك لتحل مكانه أمواج اليقين؟ أيمكـــن لنجوى أن تتوقف عن "المجاهرة بالتحدى"؟ هل تخفـــف مـــن نظرات المناورة والتهكم؟! مرة أرادها فأخفق. لكنها تظاهرت

بالقناعة والرضا. دائما تلبى كلما دعوتها. ذات ليلـــة قالـــت: تفكيرى منحصر الآن فى أبنائنا الخمسة... لاتقلـــق. ومـــرة كانت شاردة الذهن، فآثر الانسحاب دون كلام..

عاد إلى النظر فى ظهر الباب الذى لا يحجب أصواتهم، ولكنه لا يحجب حركات وتحركات نجوى المحتملة؛ أهى فى المطبخ؟ أم غرفة النوم؟ أم تقف فى الشرفة؟ أم .. أم. رجـــع بمقعده قليلا إلى الوراء. ونظر فى صورة معلقة أمامه تجمعه بنجوى فى حديقة الحيوان وهى تتأبطه أمام قفص نســـانيس، وقال فى نفسه: لست أسمع سوى أصوات صغارى الـــذين لا يراقبهم أحد. أحس بغضب يثور فى أعمـــاق قلبـــه. ويتملـــك أعصابه، ويغلب على مركز الحلم فى عقله. فقال فى نفســـه: أنا موشك على الانهيار، وربما أرتكب حماقة، أو يصدر عنى تصرف متهور لن أجنى من ورائه سوى الندم..

أنصت إلى صوت رخيم وقور لا يمكن تجاهله. نصـــح بأن العالم لن يتقوض إذا لم تنجز يـــا صـــابر التقريـــر، أو تأخر إنجازه ليوم أو ليومين. وسمع الصوت الرخيم الوقـــور يقول:

- نح الأوراق يا صابر واسترح.

لم يستجب للأمر بأن واصل النظر فى الأرقام التى سبق أن سجلها ورأى أنها تحتاج إلى تكملة، فعاوده الصوت الآمر:

- نح الأوراق يا صابر واسترح..

استجاب هذه المرة بأن غادر مكانه ، ومشى فى الحجرة قليلا ثم جلس على الشازلونج وتمدد. أغمض عينيه بعد أن أطفأ النور.. ورغم أنه لم تأخذه سنة ولا نوم -فإنه لم ينزعج للأصوات والصياح خارج الحجرة وراء الباب المغلق. وتساءل متعجبا.. كيف لا يرى فى الأصوات الصادرة عنهم الآن أى إقلاق أو ازعاج؟! . ولم يطل عجبه، فقد أرجع عنف الأصوات وصخبها إلى شدة "حساسية نفسه" الموصلة إلى أذنيه حرصه العارم على إنجاز مهمته؛ لأن الأصوات -وهنا أصاخ بسمعه- لم تتوقف أو تخف. بل إنه يجد -الآن- أن أصوات الصغار مألوفة ومطمئنة، ولاحظ أن ثمة خدرا يتسلل إلى جسمه بصخبهم الذى كان مثيرا لقلقه وعذابه منذ قليل. إن الصخب تحوّل الآن إلى ما يشبه معزوفة موسيقية مريحة ذات إيقاع محبب حميم.. لكن الخدر الجسدى لم يكتمل، فقد

دعاه الصوت الرخيم -مرة أخرى- إلى تغيير حالــه لتأكيــد إحساسه بالألفة والاطمئنان. قال:

- شاهد برامج التليفزيون يا صابر.

فمد يده إلى التليفزيون وفتحه. وجعــل يبــدل القنــوات المختلفة بحثا عن أخبار هذا اليوم. صــدمته صــور غريبــة وحشية. هذه أخبار اليوم؛ رأى منازل مدمرة، وأخرى يجرى تدميرها على رؤوس قاطنيها بطائرات وقنابــل. رأى قتلــى تطويهم الأنقاض، وثمة دبابات تمرح وسط حقــول خضــراء وأحياء سكنية، ورأى "صواريخها" تفجر مــدارس ومســاجد وكنائس. وسمع صوت مذيع مضطرب:

- الضرب هذه المرة بقنابل لا تخطئ الهدف .. لا تنحــرف عنه..

أصابه هلع وإحباط، وانفجر فى نفسه إحساس بالتضاؤل والتقزّم. كيف يحدث هذا دون مراجعــة أو احتجــاج؟ هــل انضوى الجميع تحت راية "العجز"؟! . إســراف فــى بــث الصور يقابله إسراف فى المشاهدة والحكــى. متــى يجــرى التخلص من العجز والكف عن المشاهدة والحكى؟!.. وقــال الصوت الوقور:

– أغلق التليفزيون أغلق.

مد يده وأغلقه ثم توسط المكتب ليستأنف العمل. نظر فى الأرقام والخطوات الناقصة لكنه لم يتحمس للمواصلة. رغب فى ترك المكتب ومغادرة المكان لاسيما أن أصوات الصغار قد عادت إلى الانطلاق وكأنها كانت حبيسة غرفة بعيدة، وتساءل: كيف لم يسمعهم وهو ممدد على الشازلونج يشاهد أخبار التليفزيون؟!. نصحه الصوت الوقور بترك كل شىء ومغادرة المسكن لبعض الوقت. وقال:

– غادر. ثمة مكان آن لك أن تذهب إليه وتزوره. حان الوقت للزيارة.

لم يجد بنفسه ميلا للانصياع؛ خالف الصوت الوقور هذه المرة؛ فقد شعر بانقباض فى صدره، وبحنين جارف لصغاره، وتمنى أن يبقى إلى جوارهم يشاركهم العبث البريء وأحب أن تكون معهم نجوى .. خرج من الغرفة وجمعهم حوله وجعل يلاطفهم ويتودد إليهم، لا سيما أن نجوى قد ظهرت خارجة من المطبخ وجلست بجواره هادئة وديعة. جلسة عائلية مريحة لأسرة مكتملة سعيدة. وقوى لديه الإحساس بالمخالفة وهو

يرى نجوى مقبلة عليه حيث تمسك بيده بين الحين والآخر، فانسربت من نفسه المخاوف والشكوك لتنعم بأمواج من الحنين والحنان.. ولم يجد أى ميل للخروج، فآثر البقاء..

(٣)

استيقظ فى اليوم التالى متأخرا وهو يبتسم، نظر فى "المنبه" فوق الكومدينو، بلغت الساعة التاسعة. التفت إلى يساره فرأى ظهر نجوى البديع، وهى تغط فى نوم عميق فزادت ابتسامته. شعر بالراحة والسلام: أسعدته وأرضته نجوى عقب جلسة الأمس مع الأبناء. كان شديد اللهفة والإقبال. حالفه التوفيق فشعر بالنشوة والرضا. رغب فى أن تستمر نشوته ويتواصل رضاه.. وقال لنفسه: لن أذهب اليوم إلى الشركة، وليكن ما يكون. لكنه نهض من الفراش وهو يفكر فى "التقرير" المكلف بإعداده، ورأى عباس الحارثى المدير يتحدث عنه بغضب، ففكر فى الخروج من الغرفة ومغادرة الشقة والاتصال بالشركة من محل جودة الحلوانى المقابل للمنزل. فى دقائق كان يهبط السلم ويعبر حارة منصور الضيقة إلى التليفون. لامست وجهه نسمات خريفية

باردة وهو يبدى اعتذاره للمدير فى اقتضاب، ولم ينهد العـالم كما ظن أمس..

بدلا من أن يعبر الحارة مرة أخرى ليدخل المنزل –اتجه إلى مخرجها الذى يفضى إلى شارع "الحلو"، المـؤدى إلـى شارع "الجلاء" . حين أرسل بصره إلى الجهة المقابلة فكر فى أن خلف الجهة اليسرى للجلاء يقبع خـلاء واسـع تتوسـطه مدافن المدينة. وسمع الصوت الرخيم:

– فلتقم بالزيارة. تحرك إلى الخلاء.

تشاءم، وازداد تفكيره فى الأبناء الخمسة ونجوى. أبـى الانصياع إلى الصوت. استدار عائدا إلى شارع الحلو، ودلف إلى الحارة. بينما مسّ جبينه هواء سبتمبر البارد هـرع إلـى المنزل وصعد درجات السلم بهمة عالية. فتح الباب .. لم يكن الصغار قد استيقظوا بعد.. مضى نحو حجرة نومـه، فوجـد الباب مغلقا من الداخل. استغرب قليلا لكنه فسّر بأن نجـوى بحاجة إلى نوم إضافى بعد سهرة الأمس المنعشة..

مشى إلى حجرة المكتب بقلب مهموم وفكر نشط .. فكر فى الصوت الرخيم الوقور الآمر بالزيارة، رأى أفواه صغاره

وهم يضحكون، ويأكلون، ويصيحون، ازداد الهّم وتضـــاعف التشاؤم. اتجه إلى الشازلونج وتمدد. رغب فى رؤية نجــوى فقرر إيقاظها.. نهض وخرج من البـــاب المـــوارب.. قصـــد الغرفة وأدار الأكرة.. كان الباب مغلقا. دليل استغراقها فـــى النوم جراء سهرة الأمس المنعشة..

لم يعد إلى حجرة مكتبه؛ آثر أن يغادر المسكن، لأنـــه لا يجد أحدا يتكلم معه أو يجالسه.. هبط درجات الســـلم بتثاقـــل كأن ثقلا حديديا مربوط بقدميه.. وحين أسلمته بوابة المنـــزل المتهالك إلى رصيف الشارع الضيق وقف يتأمـــل المحـــلات المتواضعة يجلس أمامها أصحابها فى انتظـــار مـــن يقصـــد الدخول، وتأمل منازل الجانب المواجه فرآها تكـــاد تلامـــس منازل الجانب الذى يشغله المنزل، ورأى شـــرفات المنـــازل المحاذية والمقابلة متقاربة من بعضها البعض؛ فشعر بضـــيق فى صدره.. يشغل مسكنه فى حارة منصور منذ سبع سنوات انتظارا للنقل إلى مسكن آخر تلح به عليه زوجتـــه الملولـــة الضجرة العنيدة .. كيف تلح زوجته على الانتقال؟! أين المال الذى يساعدنى على تغيير المسكن والحى؟! تريد نجوى مسكنا آخرى فى حى راق، فأين المـــال الـــذى يحقـــق إرادتهـــا؟!.

الأرض الواعدة بالثراء هى الحل الوحيد للمشكلة.. بل هـــى الحل لجميع المشكلات الحالية والقادمة، لكن الأرض مشـــاعة بينه وبين أشقائه، وهم يفضلون الانتظار أملا فـــى أن ترفـــع الثمن شركة طنطا الراغبة في الشراء..

تضاعف ضيقه فشعر بتخاذل ساقيه. لم يشأ أن يبتعد عن المنزل والمسكن فلبث فى مكانه بجوار البوابة المتهالكة؛ فكر فى أبنائه الخمسة النائمين، أحب أن يصـــعد لتفقـــدهم وهـــم نائمون، ورغب فى رؤية نجوى، بل إنه شعر بشوق جـــارف إلى غرفة نومه، ولكنه فكر فى إنها لاتزال نائمة، وإذا صـــعد فلن يجد فى المسكن سوى الصمت.. حينئذ عـــاوده الصـــوت الرخيم يحثه على مغادرة المكـــان والمضـــى إلـــى الخـــلاء والانعطاف إلى طريق المدافن.. وسمع الصوت الرخيم:

– لم تزر والديك منذ ثلاث سنوات.. كيف؟!

استبد به إحساس بالقنوط والقلق فشعر بمزيد من تخاذل ساقيه.. ولكنه تساءل: كيف يستسلم للقنوط والقلق والتخـــاذل ومهمته الرسمية ناقصة، وحياته مزدانة بالخمســـة، وشـــباب نجوى وجمالها الأخّاذ؟!. وهتف فى حزن:

– الواقع إننى لن أسمح بما يعكر علىّ صفو الحياة.

ولكن "الحث" كان قويا ونشطا ومتواصلا. استعان ببقايا اطمئنان يكمن فى أعماقه فقرر المواجهة بتصرف غير مبال بما سيجرى حتما.. ومع ذلك يجد فى دعوة الصوت الرخيم معبرا إلى "صفاء ذهنى" لن يتحقق إلا فى معانقة الخلاء، والاندماج فى إيحاءاته، وتأمل ما يحفل به صدره من هواجس..

تحرك فغادر حارة منصور، وشارع الحلو الذى أسلمه إلى شارع الجلاء. عاوده الصوت الرخيم فقال:

– أنت الآن على الطريق الصحيح. انطلق إلى الخلاء.

فتساءل يخاطبه:

– وهل يمنحنى الخلاء الاطمئنان؟!

– سيمنحك الخلاء غاية الاطمئنان.

حين مال إلى شارع (٢٥) المؤدى إلى الخلاء الذى سيسلمه إلى طريق المدافن –همس لنفسه بكلام يتوافق مع همس الصوت الوقور: حقا فى الخلاء تتركز الرؤية، وتتسع مساحات التأمل، وتتضاءل الحوادث الماضية والحوادث الجارية، ويتقزم العمالقة، وتصغر الأرض، ويطوى الأصوات

كافة سردابٌ مظلم لا يسمح بنفاذ أى صوت.. وقال الصوت الوقور:

- ألم أقل لك إنك على الطريق الصحيح؟ .. أنت لم تزر قبر والديك منذ ثلاث سنوات.

شعر بالخزي والأسف وعجز عن تبرير تقصيره طوال السنوات الماضية، رغم حرصه على التعزية فى ليالى المآتم بالسرادقات ودور المناسبات .. لا يجد لديه الآن المبرر للتقصير.. ومرة أخرى شعر بالخزى والأسف..

مضى تجاه القبر بخطوات ليست سريعة. ضم أولا أمه ولحق بها أبوه بعد عشرة شهور. برزت بذهنه لوحة رخام تعلو فتحة القبر، محفور فيها اسم والده "سالم الراعى" (١٨٩٨- ١٩٧٤). هو الذى كتب الخط بعد الوفاة بيومين، وحفر قاطعُ الرخام بدقة الاسم والتاريخين، وطلى بنفسه الحفر باللون الأسود، وثبت بيديه اللوحة أعلى الفتحة. منذ ثلاث سنوات لم يزر القبر. كيف سمح للأحداث أن تجعله مقصرا عن الزيارة؟! ألا يزعجك احتمال التقصير فى زيارتك؟! كيف فاتك أن تقوم بالزيارة فى السنوات الثلاثة الماضية؟! وهمس بخزى وأسف:

- أنا مشتاق إلى أبى وأمى.

لم يشعر بانقباض صدره مثلما كان يشعر فى الماضـــى. اتجه بقلب منبسط وأعصاب هادئة إلى طريق المـــدافن. مـــرّ بقبـــور الهيتمـــى، والســـعودى، والطيبـــى، والفطـــاطرى، والمحلاوى، والمنشاوى.. قرأ الفاتحة ودعا بالرحمة والمغفرة عدة مرات حتى وصل إلى مقبرة "الراعى". قصـــدها وهـــو يشعر باطمئنان، وقال لنفسه وهو يلامس هيكل المقبرة:

- ها هو القبر الذى يضم رفات أبى وأمى، كم أشعر بالحنين إليهما.. كم تمتعت بحنان أمى ورعاية أبى.

لاحظ وهو يقرأ آيات من القرآن ويـــدعو بالرحمـــة، أن اللوحة الرخامية ليست فى مكانها.. عاود النظر إلى المربـــع الخالى الذى كانت اللوحة مثبتة فوقه. خفـــق قلبـــه وتـــوترت أعصابه. بحثت عيناه فى الأرض فرآها وقد غطـــت نصـــفها طبقةُ تراب ناعم. انحنى ومد يده ورفعها.. حملها بـــين يديـــه ونفخ بقايا التراب الناعم العالق بالحروف والأرقـــام. شـــعر بحاجة إلى الجلوس فجلس أمام القبـــر. اســـتغرقته الـــذكرى فاستمع إلى أصوات مختلفة تنادى اسمه وتكلمه:

- صابر.. صابر.. صابر..

كل الأصوات تناديك يا صابر. أنت أكبر الأخوة الذكور والإناث. كلهم كانوا ينادون اسمك. سمع صوت أمه تقول:

- أنا حزينة؛ تزوج الصغار وأنجبوا وصنعوا أسرات.

وسمع أباه يقول بصوت متفائل:

- لا تقلقى. فى الوقت المحدد سيتزوج وينجب البنين والبنات.

وسمع أمه تقول:

- ضحّى صابر كثيرا لتتزوج أخواته الثلاث.

وسمع صوت أبيه يقول:

- ترك الدراسة والتحق بعمل ليساعدنى ويعيننى.

وقالت الأم:

- صمم على أن يواصل أخواه جمال وحمدى التعليم حتى تخرجا.

وعقب الأب متحسرا:

- وتزوجا.. الواحد بعد الآخر.

وأضاف:

- جمال برتبة نقيب بقسم ثان طنطا، وحمدي بمنطقة طنطا التعليمية.

وقالت الأم باكية:

- وزوج أخواته الثلاث ناهد، ورئيفة، وبدرية.. جزاؤه عند الله.

وسمع صوته يقول:

- شعرت دائما أنهم أبنائى وليسوا فقط إخوتى

وقال حمدى معترضا على زواجه:

- صغيرة جدا.. تأخرت يا صابر.. تأخرت

وعقب جمال:

كيف تتزوج فتاة فى العشرين وأنت فى الستين.

وسمع ناهد تقول متوسلة:

- لا تتزوجها، صغيرة يا صابر.. صغيرة.. وهذا رأى رئيفة وبدرية.

وسمع نجوى تقول بتصميم:

- لا يهمني ما بيننا من فارق السن.

وسمعها تقول:

- أعجبت بشخصيتك الصبورة.. ولن أتزوج سواك.

وقال حمدى:

- قرار العروس مفهوم. وسهل معرفة مغزاه.
وسمع صوته يقول فى تصميم:
- سأتزوج من نجوى رغم كل ما أسمعه وسمعته.
وسمع أصوات صغاره الخمسة وهم يتصايحون ويشيعون فى المسكن الحركة والصخب والضجيج. وقال لنفسه: أنعم الله على بالخمسة فى خمس سنوات. الآن أنا فى السابعة والستين ونجوى لم تجاوز السابعة والعشرين، وها هو صوت حمدى يبرز فوق الأصوات يتحدث بلهجة قاسية ومستفزة:
- كيف تتوقع منا أن نوافق على زواج غير متكافئ؟!
وسمع صوت أمه يزيح صوت حمدى:
- إذا تزوجت وأنجبت سأفرح حتى وأنا فى القبر.
وقال لنفسه:
- رحلت يا أمى قبل أن أتزوج بعام.. وأقول لك الآن أثمر الزواج عن خمسة ذكور أختال بهم على إخوتي وأقاربي وأصدقائي..

انخفضت الأصوات وهو يندمج مرة أخرى فى قراءة ما يحفظ من القرآن والأدعية. نظر فى اللوحة الرخامية فساءه

تقشير الحروف والأرقام.. قرر اصطحاب اللوحة لعلاج التقشير بطلاء أسود، والعودة لتثبيتها فى المربع الخالى الذى سقطت منه، ولاحظ أن "الصبار" على جانبى القبر يكاد يجف. ازداد استياؤه من شحاته التربى.. يوصيه دائما برش الماء وإسقاء الصبار، يغدق عليه كلما قابله فى الطريق أو حينما يحضر إلى المنزل نظير هذه المهمة..

نهض من مكانه وغادر. بحث عن "شحاته" راعى المقابر. لم يطل بحثه؛ فقد سمع من خلفه دبيب خطوات تبين له أنها لشحاته. عاتبه على إهمال اللوحة والصبار وقال له:

- رش الأرض. واسق الصبار.

قال شحاته وهو يشير إلى اللوحة:

- اتركها .. سوف أثبتها اليوم.

- بعد أن أطلى الحروف والأرقام المقشرة.

- ممكن أتولى المهمة.

- ما أريده منك أن ترش الماء وتسقى الصبار.. الصبار موشك على الموت!!

واصل سيره وغادر شارع المدافن الذى أفضى به إلـى شارع (٢٥) المؤدى إلى شارع الجلاء.. يواجهه قسـم ثـان طنطا..وقال لنفسه: جمال برتبة عميد، صـار الآن مـأمورا للقسم.. نظر إلى المبنى العريق فشعر بشوق لرؤيـة شـقيقه جمال، كما شعر بشوق إلى حمدي، لكنه استبعد فكرة لقائهما؛ لم يرد أن يطلع على حاله أحد..

(٥)

عندما ضمه شارع الجلاء. لاحظ أن خطاه تسرع به إلى شارع الحلو. توقف أمام محل بويات "الجارحى" واشترى علبة لـون أسود صغيرة وفرشاة صغيرة مناسبة.. ثم مضى إلى حـارة منصور وهو يشعر بشوق شديد لصغاره ولنجوى، تسـارعت خطاه إلى المنزل. صـعد الـدرجات وهـو يتـأبط اللوحـة الرخامية.. فتح باب الشقة ليستقبله صمت الصالة الذى يشـبه صمت الخلاء.. أين الأولاد؟. لا أسمع أى صـوت.. وأيـن نجوى؟!..

فكر في أنهم في غرفتهم المغلقة. ربما كـانوا نـائمين. ورأى غرفة نومه مغلقة فلم يشأ أن يطرق بابها.. نجوى مـا زالت نائمة جراء سهرة أمس المنعشة.. فدخل غرفته ووارب

الباب ثم فرد صفحتين من الأهرام فوق جانب من سطح المكتب ووضع اللوحة فوقهما. فتح العلبة وغمس الفرشاة وسوّد الحروف والأرقام المقشرة.. شعر بالرضا وقال في نفسه وهو ينظر في المنبه: بعد نصف ساعة تجف وسأذهب لأثبتها في الواجهة، ولم يلتفت إلى الجزء الظاهر من سطح المكتب الذى يعلوه التقرير الناقص. بل إنه شعر بحاجة إلى الاستلقاء على الشازلونج..

مضت دقائق قبل أن يسمع باب غرفة نومه يفتح. خفق

قلبه بالحب والنشوة.. ها هى نجوى والشوق إليها غلاب، والصغار نيام.. نهض.. تقدم من الباب وأزاحه .. رآه يمرق من غرفة نومه إلى باب الشقة .. تسمر فى مكانه وهو يرى نجوى أمام الباب تحبك الروب الوردى الذى اشتراه لها أول أمس.. متوردة الوجه، انسابت فوق الوجه الأبيض خصلات من شعرها الأصفر.. وكان عماد الباجورى قد خرج من باب الشقة بعد أن أفسحت له نجوى الطريق..

صاح بصوت لم يخرج من فمه أبدا. قطعت لسانه سكين ماضية. فلم يعد يشعر به .. التفتت نجوى فرأته واقفا بالباب

يحرك شفتيه بلا صوت. وانفتح باب غرفة الأولاد واندفعوا إلى الصالة، فوقفوا ينظرون فى حيرة إليهما. رأى صابر الصالة ممتلئة بعائلته، وكانت شفتاه مستمرتان فى الانطباق والانفتاح دون صوت. دخلت نجوى غرفة النوم وأغلقت خلفها الباب فى حين دخل هو إلى غرفة المكتب، ولف اللوحة الرخامية فى صفحتى الأهرام وحملها برفق ووضعها تحت إبطه الأيمن..

غادر المسكن وهو يتحدث بصوت لا يسمعه أحد. قابله على درجات السلم خالد العرايشى، جاره بشقة (٤) بالطابق الثانى، حياه الشاب فرد التحية دون صوت. تعجب خالد حين رأى شفتيه تتحركان بغير كلام.. ربما زال عجب الجار بعد أن غاب صابر عن بصره. ولعله فكر قليلا لكن حتما سوف ينسى لأنه يلتمس العذر لعجوز على مشارف السبعين. تذكر صابر أنه رآه ذات ليلة وهو يهبط من الطابق الثالث.. كان مضطربا ويتحاشى النظر إليه، وتذكر أنه عندما فتح باب الشقة رأى نجوى متوردة الوجه ولم يكن الأولاد بالمسكن.. قالت له أنهم عند الجارة مديحة. وتذكر أن نجوى ليلتها لم تستجب، وأنه بات مغموما، لكنه فى الصباح التمس الأعذار،

ومع ذلك فكر فى شاب شقة (٤) بالطابق الثانى. وتساءل: هل تقيم نجوى علاقة مع الشابين؟ هل هو غافل إلى هذه الدرجة؟ وما الذى يجبرك يا نجوى على البقاء معى؟ وأجـاب عنهـا بقوله: "يجبرها على البقاء ما يجبرك على التماس الأعـذار؛ الأولاد الخمسة، وأضاف: والأرض ذات الثـروة المنتظـرة الواعدة بالثراء والرخاء..

اتجه بثبات إلى "جباسة عياد" اشترى ربع كيلو جـبس، وابتاع من بقالة "جزر" زجاجة ماء. ثم غادر شارع الحلو إلى شارع الجلاء حاملا كيس الجبس والماء بيسراه. بينما ضـغط إبطه الأيمن على اللوحة الرخامية وهو مسرع إلـى شـارع المدافن وكأنه على موعد مهم. قال لنفسه: طول الوقت وأنـا أشعر أنها تخون، منذ عام وأنا أشعر أن نجوى تخوننى. كلما جمعنا لقاء تبدو لى كأنها مستكفية فلا أحصد سوى الفتـور، وعندما تحفظت على تبادلها الضحك مع عمـاد ذات مـرة- قالت: عماد عيّل ولا يملأ عينى. أنت رجلى وسـيدى وأبـو أولادى. صدّقت ووثقت، ودائما صابر الراعى يصدق ما يقال له ويثق فيه..

حين ضمه شارع المـدافن زادت سـرعة خطواتـه.. ولاحقه صوت بداخله يقول: أخطأ صابر فـي الـزواج مـن الصغيرة، وأخطأ في تجاهـل تحـذيرات أخويـه وأخواتـه وأصدقائه، وأخطأ لما سمح لأبنائه الخمسة أن يكونوا "قيـدا" يقيد إرادته وجعله يقبل ما هو فوق طاقته، وأخطأ حين صدّق بأن صابر الراعى كله همّة ومروءة وشهامة وإخلاص..

قبل أن يصل إلى مكان المقبرة شاهد جنازة تبرز فجـأة من طريق جانبى – فأسرع وانخرط فى وسـط المشـيعين.. شعر باطمئنان فى قلبه. واضطر إلى الوقوف حتـى فرغـت مراسم الجنازة وإجراءات الدفن.. ثـم قـدم تعزيتـه لأبنـاء المتوفى وأقاربه بينما كان يحمل اللوحة والكـيس وزجاجـة الماء... ثم مضى نحو المقبرة التى لا تخطئها العين فى وقت كانت الشمس قد بدأت فى المغيب..

هاهو قد عاد لأداء المهمة. فتح الكيس وصب الماء فوق الجبس وقلّبه حتى تعجّن، فثبت به اللوحة فى المربع الخالى، ورش الصبار بباقى الماء. شعر بالراحة فغابت مـن ذهنـه صور نجوى والأولاد والتقرير وعباس الحـارثى، وغطـى

ضباب كثيف صور الأخوة والأخوات وزملاء العمل والأصدقاء القدامى والجدد والجيران، حتى عماد الباجورى وخالد العرايشى تباعد وجهاهما وبهتت ملامحهما. جلس القرفصاء مستندا إلى جدار القبر، وأسند رأسه فوق ركبتيه، وتابع زوال الضوء المتعلق بأهداب الغروب المتراجع، بينما مست وجهه برودة هواء الخريف.. سمع صوت شحاته يقول وهو يربت كتفه:

- الليل أزف. هل تنتظر أحدا؟!

نظر إليه ذاهلا. ولم يجب... لسانه مقطوع.. كأنه لم يسمعه.. فعاود شحاته السؤال:

- هل تنتظر أحدا؟ الوقت تأخر بك .. الوقت تأخر.

فقال صابر بصوت واهن:

- انتظر أبى .. قال لى انتظر هنا حتى أعود.

قال شحاته مستغربا:

- لاحول ولا قوة إلا بالله..أبوك الحاج سالم مات منذ عشر سنوات.

فرد بتصميم وكأنه لم يسمعه:

– قال انتظرنى ولن أتأخر. ومحال أن أغادر المكان .

انصرف شحاته وتباعدت خطواته.. وتباعـــدت.. نظـــر صابر في السماء ليشاهد انسحاب آخر ضوء فيها.. بينما حل لون رمادى مالبث أن تحول إلى ظلام حالك فى لحظة سقطت فيها رأسه على نحره، وقد امتلأ قلبه بأمواج الاطمئنان.

الحفـــل..



الحفـــل ..

(١)

ألقيت نظرة أخيرة على صورتي الكاملـــة فـــي مـــرآة دولاب الملابس المواجه للأسرّة الثلاثة الخاصة بي وشقيقيّ. تأملت الشعر الأسود الفاحم والقمـــيص البـــيج، والبنطلـــون العسلي، والحذاء البني اللامع؛ ابتســـمت راضـــيًا وســـحبت نظرتي من المرآة.. غادرت الغرفة إلى الصالة التي أفضـــت

بي إلى الصالون الواسع يتصدره أبي الحاج رضوان العبادي، ويجلس على يمينه شقيقاي فكري وجلال، بينما جلست على يساره والدتي ملك القاضي، وشقيقاتي الثلاث: سعاد وناهد وأميرة.. ارتدى الجميع ملابس الخروج؛ بعد قليل سينطلقون إلى منزل خالي أنور القاضي للمشاركة في حفل يقيمه بمنزله بمدخل قرية قحافة المتاخمة لآخر شارع البحر. يقع منزلنا في طنطا بشارع كليوباترا المتفرع من شارع النادي.. يبعد عن منزل خالي أنور بحوالي كيلو.. يطل على أرض خضراء واسعة، وفضاء ممتد لا حدود له..

وجّه خالي الدعوة إلى العائلة دون استثناء لحضور حفل "سبوع" ابنه الذي رزقه الله به بعد سنوات طويلة من الانتظار. شملنا جميعًا إحساس بالفرح للمولود الذي حمل اسم "أكرم"... أتذكر أن أبي أعلن سعادته مرات عديدة بقدوم أكرم ولي العهد.

لم أشأ قطع الحديث الجاري، فواصلت السير إلى الباب المفتوح الذي يؤدي إلى البلكونة.. تشرف على حديقة مستطيلة مزدانة بالورود وشجرات المانجو والجوافة

والليمون.. في وسطها بجوار السور السلكي "طلمبة مياه يدوية" اشتهرت بتدفق الماء بغزارة شديدة. تأملت "الطلمبة" ذات اليد الطويلة التي انجلي طرفها لكثرة احتكاك الأكف به. يتوافد بانتظام أصحاب الأكف طوال النهار وأول الليل لسحب المياه، فالحاج رضوان كريم لا يرد أحدًا عن "الطلمبة" السحرية التي تتدفق بماء عذب غزير شديد الصفاء..

شعرت بحركة داخل الصالون، فأدركت أن موكب أمي قد بدأ يتحرك فرجعت بسرعة لأنضم إليهم.. لكن أبي تكلم واستبقاني للمساعدة في ملء الخزان بأعلى سطح المنزل ذي الطابق الواحد. قال بلهجة حاسمة:

– سنلحق بكم أنا ورشدي بعد الفراغ من ملء الخزان.

تذكرت إلحاح أمي عليه بشراء "طلمبة ماصّة كابسة" لدفع المياه إلى الخزان بدلا من هذه الطريقة البدائية. كم ألحت عليه لشرائها.. وعرّضت أن شقيقها أنور حل المشكلة منذ عام، فوفر الجهد وتجنب التلوث:

– حل المشكلة من سنة.

وكم أجاب أبي بأن مدير إدارة المياه بـ"البلدية" وعده بمدّ الشارع بالماء بعد شهور قليلة..

- اصبري يا ملك؛ فالمسألة مسألة وقت.

قطع تذكري قولُ أبي بنفس النبرة الحاسمة الصارمة التـــي لا تقبل المناقشة:

- سوف نلحق بكم أنا ورشدي بعد أن يساعد دندش فـــي ملء الخزان.

امتثلت لإرادته، وانسحبت من الصالون بعد أن لاحظتُ في عيني أمي نظرة حزن وأسف، بينما كانت شمس العصـــر تملأ الحديقة، ويملأ ضوؤها الصـــالون والصـــالة والغـــرف الأربع.

(٢)

لم أعترض على قرار أبي، ولا تمسكت بالانضمام إلـــى موكب أمي الذي غادر المنزل، بل إني نعمت بسرور بـــالغ، وفرح مريح لاستبقائي وتخلفي عن ركب أمي؛ كي أساعد في أداء المهمة التي كلفني بها أبي. البقاء يعني التأكيد على أنني أملك قوة عضلية لا يمتلكها شقيقاي، ورغم أنني فـــي الثانيـــة عشرة، فإن قوتي تفوق قوة شقيقي فكري الذي يكبرني بخمسة أعوام، أتباهي بها وأختال أمـــام أقـــاربى وأقرانـــي الـــذين

أتزعمهم، ويعملون لي ألف حساب، في المدرسة، وفي محيط العائلة، ولذلك يستعينون بي في إنجاز الأعمال الشاقة والمهام الصعبة. فأعاون دندش في ملء الخزان، خاصة أنـــي أجيـــد استخدام يد الطلمبة دون شعور بالملل والوهن. كما أن البقـــاء يعني أن مريم جارتي التي تصغرني بعام سوف تكون معـــي طول الوقت، وسوف تشاركني "الطمْبـــرة" كعادتهـــا عنـــدما تحضر دندش. أمس حزنت مريم عندما عرفت أنني ذاهـــب إلى حفل السبوع مع أمي وإخوتي.. توطدت صلتي بمريم بعد انتقالنا من القرية إلى منزلنا الجديد الذي يجاور منزل مـــريم. أتاح لنا القرب أن نتقابل مرات في اليوم الواحد. فأذهب إلـــى منزلها، وتحضر إلى منزلنا دون مواعيـــد، وفـــي أي وقـــت نريده. يبارك كبار الأسرتين صلتنا الحميمة وعلاقتنا الوطيدة الحافلة بالبراءة والتلقائية..

مضيت بعد أن غاب موكب أمي إلى حجرتـــي دون أن أشعر بأي ضيق، استبدلت ملابسي بأخرى ليست للخـــروج.. وعدت إلى البلكونة مارًا بأبي الذي انشغل بالقراءة في كتـــاب "أرض النفاق" ليوسف السباعي. لمحته وهـــو يبتســـم دون أن

يرفع عينيه عن صفحاته. لم أشاهده يبستم سوى الآن.. ماذا في كتاب أرض النفاق؟. قلت لنفسي: أحب أن أقرأ لأبتسم.. لكن متى يمكن قراءة أرض النفاق؟!.

حين وصلت إلى البلكونة رأيتها.. مريم. تقف أمام باب الحديقة. أشرت لها واستدرت وغادرت البلكونة.. مررت بأبي الذي يواصل الابتسام. رغبت أكثر في قراءة الكتاب لكن متى؟ اندماج أبي في القراءة لم يجعله يشعر بدخولي "الصالون" وخروجي منه. وارب ُت باب المنزل وهبطت درجاته السبع.. وفي لحظات كنت أقف مع مريم أمام باب الحديقة وبجوارنا ورود حمراء وبنفسجية. وظهرت في ملامح وجهها الأبيض المستدير راحة الاقتراب. وسمعتها تقول هامسة وهي ترفع عن عينها اليمنى خصلة من شعرها الذهبي:

- فرحت لما لقيتك في البلكونة.

قلت لها:

- أراد أبي أن أساعد دندش في ملء الخزان.

فسارعت قائلة:

- دندش ملأت خزاننا أمس.

- أعرف.

- رشدي.. أنا معك للمساعدة.

- يدك ضعيفة يا مريم. وتتعب بسرعة.

- سأمسك معك يد الطلمبة.

عندما هممنا بالتحرك ظهرت دندش حاملة بستلة الماء تفرغ فيها ثلاثة دلاء مملوءة بمياه الطلمبة. رأينا المرأة الفتية تتجه في صمت ودون كلام إلى موقع الطلمبة، وضعت الدلو تحت الفوهة، وحركت اليد إلى أسفل وإلى أعلى مرات حتى امتلأ الدلو الأول فأفرغته في البستلة.. وقبل أن تعود إلى مكانها أسرعت وأمسكت اليد الفضية اللامعة، بينما ملأت شمس العصر الحديقة.. وواصلت أنا ملء الدلاء الفارغة لتصبها دندش في البستلة ثم ترفعها على رأسها وتصعد بها درجات السلم العشرين إلى سطح المنزل..

أحسست بكف مريم تضغط كفي أثناء عملية "الطمبرة". تصعد يد الطلمبة وتهبط بكفينا معًا مرات كثيرة. كانت عيوننا تتلاقى أثناء الصعود والهبوط. رمقت في نظراتها الحب

والاطمئنان. وشعرت وقتها بفيض من الحـــب والاطمئنـــان. فجأة نادت عليها أمها، فرفعت مريم كفها من فوق ظهر كفي بغير سرعة، غادرت بخطوات متثاقلة الحديقة إلـــى منزلهـــا، فمضيت أواصل أداء المهمة، على حين وقف أبي في وســـط البلكونة ليراقب عملية الطمبرة؛ ليضمن تواصـــلها. وجعـــل يستنهضني كلما توقفت لدقائق للراحة..

نظرت مرة إلى كفي فلاحظت بها احمـــرارًا.. ومـــرة وجدت ورمًا بأسفل إصبعي الأصغر. وأحسست بدفء يسري في جسدي كله، ورعشة خفيفـــة جـــراء اســـتمرار الحركـــة وتواصلها. بينما أخذت الشمس في الميل ناحية الغرب..

ومع أن كفي آلمتني للغاية فإنني لم أكف عن العمـــل.. أردت الفراغ من المهمة لألحق بأمي وأخوتي بمنـــزل خـــالي أنور قبل دخول الليل.. وكان أبي يحفزني بصوته الجهـــوري كلما توقفت قليلاً لأريح كفي اليمنى المحمرة.. ولم يكن أمامي إلا نسيان الألم أسفل إصبعي، وقلت لنفسي: لن أشكو لأحـــد. كيف أشكو وأنا المعروف بقوتي العضلية. وهل يليق بـــي أن أتوقف الآن وأنا الذي أختال على الجميع بما أملك مـــن إرادة

وقوة؟! وتساءلت: هل يمكن اللحاق بـأمي وأخـوتي وكفـي تؤلمني؟ وماذا لو غابت الشمس ودخل الليل قبل الفراغ مـن المهمة؟ هل يسمح لي أبي بالتوقف ودخول المنزل واسـتبدال ملابسى لأشهد الحفل الذي دعا إليـه خـالي جميـع أفـراد العائلة؟.. أبناء وبنات خالاتي هناك.. هل يفتقدونني؟ أراهـم يسألون. يسألون أمي وأخوتي عن سبب تخلفي.. ماذا تقـول أمي؟ وماذا يقول إخوتي؟..

(٣)

استمرت الشمس في الميل إلى الغـرب غيـر عابئـة برغبتي العارمة في أن تتأخر بعض الوقـت عـن المغيـب. أحسست بالقلق. فكرت في صالة منزل خالي المليئة بأقاربي، وفكرت في أولاد خالاتي .. أراهم يتركون الحديقـة بعـد أن تمتعوا باللعب وهزّ شجرات الجوافة، وقطف عناقيد العنـب.. إنهم الآن يقصدون الصالة الكبيرة وهم سعداء. هـل افتقـدوا رشدي رضوان؟ هل افتقدوني فراحوا يسـألون عنـي؟ أم أن اللعب والمرح والجري وثمار الجوافة الطيبـة قـد أنسـتهم رشدي الزعيم؟! وفكرت في أنهـم ينتظـرون وجبـة لحـم الخروفين اللذين أمر خالي بذبحهما احتفالاً بقدوم وليّ العهـد،

وفكرت في مريم التي غابت في منزلهـا بنـداء أمهـا، وكيف أنها لم تعد حتى الآن، وفكرت في أن ابنة خـالي (صفية) سوف تحزن إذا لم تجدني وسط إخوتي وأبنـاء خالاتي. صفية تكبرني بعشرة أعوام، وتوزع حبها علـى أولاد عماتها وبناتهن. كلنا نحب صـفية. ورأيـت أمـي تراقب بشغف ولهفة باب المنزل المفتوح؛ تنتظر دخولي وانضمامي إليهم، ورأيت أبناء وبنات خالاتي يقصـدونها ويسألون عني. وأبصرت صفية هي الأخرى تسأل أمي. وجدت في عيني أمي القلق والحزن.. ففكـرت فـي أن فرصة المشاركة في الحفل سوف تفوتني.. وأن الوقـت سينقضي دون أن أكون هناك، فـزاد قلقـي وتضـاعف توتري، فأقبلت أكثر وأكثر على النـزول بيـد الطلمبـة والصعود بها دون كلل رغم شعوري بالإرهـاق، وبـألم كفي وأنا أضغط على يدها الفضية التي صـارت ثقيلـة، بينما واصلت أمامي الشمس انحدارها نحو الأفق البعيـد المواجه لعيني، والذي لا يفصلني عنه فاصل ولا يمنعني من رؤيته حجاب.

(٤)

حدثت نفسي وأنا أضاعف من جهدي بأن يدي قويـــة.. يعلم الجميع أنها قوية، بنياني متين رغم أني في الثانية عشرة. يعرفون وتعرف مريم أنني أقوى من شقيقيّ فكري وجـــلال. أصلب عودًا من جميع أقراني. يثق أبي في قـــدرتي، لـــذلك استبقاني. دائمًا يكلفني أبي بالمهام الشاقة التـــي لا يتحملهـــا فكري وجلال، ودائمًا أباهي بتكليفه لي أمام مـــريم وعـــائلتي وأقراني..

تثق مريم في قوتي. ولكني اليوم رأيتهـــا قلقـــة: هـــل لاحظت أن كفي متورمة؟. أيمكن أن أكون قد توجعت مـــرة فسمعتني؟. ربما سمعت، وربما نشأ قلقها عن إرهاق لاحظته على وجهي.. وربما أدركت أني حزين لتخلفي حتى الآن عن حضور الحفل، رغم أنني صرحت لها بارتياحي للبقاء لأكون إلى جوارها طول الوقت، وربما أدركت أيضًا أنها لا تضمن أن يستمر بقاؤنا معًا. فهاهي أمها قد نادت عليها فاســـتجابت وسحبت كفها من فوق كفي ومشت إلى منزلهـــا فـــي هـــدوء وإذعان.. ونالني الإرهاق فتوقفت للحظات، وكفي على اليـــد

الفضية.. لا أدري هل غفوت؟ أم شردت؟ أم أنني كنت فـي لحظة تأمل فيما يجري هنا، وما يجري هنـاك فـي منـزل خالي؟..

انتبهت على صوت مريم..ها هي قد عـادت. اقتربـت مني ووضعت كفها الصغيرة فوق كفي القابضة علـى اليـد الفضية. لمحتُ في عينيها الأسى الصامت، والغضب المكتوم. وسمعتها تقول:

- كفاية.. أنت تعبت يا رشدي.

رمقت أبي الجالس في وسط البلكونة.. أخشى غضـبه وانفعاله. أسمع دائمًا وأطيع. أوثر إنجاز المهام التي يكلفنـي بها في مقابل أن يتركوني لشأني، وشأني هو العزلة لقراءة ما تقع عليه يدي من كتب أجدها في مكتبة عرفت أنهـا لعمـي شريف العبادي، حافظ عليها أبي ورعاها منذ زمـن طويـل. عمي شريف الآن ضابط كبير في الداخلية برتبة لواء، ويسعد كلما عرف أنني أنتفع بكتبه. أحب أن أطالع كتـب عمـي.. قرأت منها "ماجدولين" و"الشاعر" و"العبـرات" للمنفلـوطي، وأحب شخصية "ستيفن" و"سيرانو دي برجراك". وقد قـرأت

رواية "دعاء الكروان" لطه حسين التي اشتريتها من "مصروفي"، وأعجبت بصلابة آمنة وقوة إرادتها.. فكلما عاودت القراءة نسيت مشقة المهام ومتاعبها. ولذلك لا أحتج ولا أبدي أي اعتراض؛ لأنني أحب دائمًا أن يتركوني لشأني وشأني هو: الميل إلى العزلة.. أحب عمي شريف كثيرًا؛ لأنني أقرأ في كتبه.

عدت إلى النزول باليد الفضية والصعود بينما أشعر ببرودة كف مريم التي سمعتها تقول:

- كفك ساخنة.

صمتت برهة ثم قالت:

- كفاية يا رشدي.. كفاية.

منعت نفسي من الشكوى. تظاهرت أمام مريم أنني غير متألم.. وقلت لنفسي لا يمكنني أن أشكو وأعترف بألمي. فقط أمي هي التي سأشكو لها عندما أراها. سأريها كفي.. بمجرد أن أخبرها سيزول تعبي. أحب الآن أن أكون هناك...

لا يبدو أن دندش ستتوقف عن الذهاب والعودة إلا بعد ملء الخزان. تأملتها وهي ترفع البستلة لتضعها فوق رأسها

وتمضي، فشعرت نحوها بالتعاطف. صامتة صابرة لا تظهر تبرمًا، ولا تبدي شكوى، ولا تعرّض باحتجاج. ومرة رمقتهـا وهي تنظر بحنان إلى كفي القابضة على اليد الفضـية حـال النزول والصعود، فبادلتها بنظرة تعاطف وأسى.. وقالت مريم وهي تسحب كفها:

- كفاية. كفاية يا رشدي.. أنت تعبت خالص.

أبصرت بعينيها الزرقاوين انزعاجًا وخوفًـا، فأدركـت أنني موشك على الهلاك، خاصة أنني شـعرت منـذ قليـل بضربات قلبي سريعة وموجعة. نحيت يدي من اليد الفضـية، وتراجعت إلى الوراء للحظات. لكن سرعان ما قبضت علـى اليد وبدأت العمل؛ لأن أبي صاح بعصبية في مريم:

- مريم.. أنت تعطلين رشدي.

فتراجعت مذعورة بينما سمعنا صوت والـدتها تنـادي عليها بعصبية، فبدا لنا أنها سمعت صـوت أبـي الغاضـب. امتثلت مريم ومضت بسرعة إلى داخل المنزل، علـى حـين ارتفع صوت أبي:

- بسرعة . بسرعة. الشمس تختفي.

نقلت بصري وأنا أواصل الطمبرة بين الشمس الغاربة والماء الساقط في الدلاء، ونظرات أبي المتحفزة، ومدخل الحديقة الخالي من مريم؛ فشملني إحساس حاد بالوحدة والوهن.. وبدأت أشعر أنني غير قادر على المواصلة. ومرة راقبت دندش فرثيت لها، بدا الإرهاق على وجهها وفي خطواتها المدبرة والمقبلة..

رغم إحساسي بالوهن - عجزت عن اتخاذ قرار بالتوقف؛ فضاعفت من حركتي بالنزول والصعود بكف متورمة لم أشعر بأي ألم فيها.. بل إنني لا أكاد أشعر بجسدي كله. ورأيت كفي تتحول إلى معدن التصق باليد الفضية؛ فها هي صور الحفل التي فكرت فيها منذ قليل تتراجع مع الحركة العنيفة العصبية الصاعدة والهابطة، وها أنا أتحاشى النظر إلى عيني أبي المتحفزتين، وها هي الشمس قد غابت خلف الأفق الأرجواني ليحل مساء رماديّ أثار شجوني، ولكنه لم يشعرني بالضيق..

أصابتني موجة فتور فلم أعد أبالي بالحفل الذي غطاه ضباب كثيف، فما عدت أرى شيئًا، ولا أفكر في أي شيء

سوى أنني أتمنى الفراغ من مهمتي التي صـــارت ثقيلـــة جدًا وموجعة للغاية، وبدا المكان موحشًا بخلوّه من مريم التي حجزتها أمها مراعاة لغضب أبي وانفعاله، وهـــاهو أبي ينهض من جلسته - بعد أن أتمت دندش ملء الخزان وانصرفت - ويأمرني بدخول المنزل:

- رشدي تعال، لتغير ملابسك لنذهب إلى منزل خالك.

بدلا من أن أسارع إلى تنفيذ ما أمرني به - مشيت ببطء مبتعدًا عن "الطلمبة" والـــدلاء الفارغـــة- فكـــرّر قولـــه بصرامة:

- أسرع أسرع يا رشدي.

لم أسرع، ولكني واصلت السير ببطء وأنا ألاحـــظ المساء الرمادي يهبط فوق معـــالم الحديقـــة.. الأشـــجار والورود والطلمبة الشهيرة، ويغلف الممر المـــؤدي إلـــى الدرجات السبع التي انتهت بي إلى باب المنزل. دخلـــت منه وسط اللون الرمادي إلى الصالة وإلى حجرتي، بينما جعلت أتحرك داخل اللون الرمادي الذي أخـــذ يتكـــاثف وينعقد في الفراغ وأنا أقصد دولاب الملابس..

امتدت يدي إلى مصباح الجاز نمرة (١٥) المعلق بالحائط. أنزلت المصباح.. ووضعته فوق المكتب، خلعت زجاجته وأشعلت الشريط، ركبت الزجاجة وعلقته على الحائط فأضاء الحجرة.. تأملت بنظرات جامدة القميص البيج والبنطلون العسلي، خلعت ملابسي ولكن يدي امتدت إلى البيجاما وارتديتها.. ذهبت إلى الحمام وغسلت وجهي وبرّدت كفي المتورمة الساخنة بماء الحنفية. جففت وجهي ويديّ وعدت إلى الحجرة.. والسرير لأجلس في وسطه وأنا أنظر في تورّم إصبعي الأصغر بكفي اليمنى.. شعرت بألم شديد وإحساس بالغثيان فتمنيت أن أرى أمي، وأتكلم مع مريم..

استمعت إلى حركة تدنو من الغرفة. تبين لي أن مصدرها أبي الذي جاء ليستفسر عن تأخري. تعجب حين وجدني جالسًا وسط السرير بالبيجاما.. قال بصوته الجهوري الحاد النبرات:

– أنتظرك لنذهب. غيّر ملابسك لنذهب.

فرددت بصوت واهن:

– لا ... أنا تَعْبان، وأريد أن أنام.

- والحفل؟!

- أنا تَعْبان، وأريد أن أنام.

لم أخبره بتورم كفـي وسـخونة جسـمي. وإحساسـي بالغثيان. لم أفكر في إخباره؛ لأني قـوي وشـديد التحمـل، ولأنني اكتفيت بالتفكير في أمي التي رأيتها تهرع إلى الغرفة وأنا ممدد في الفراش وتضمني إلى صدرها بحنان، ولاحظت أن أبي لم يرها وهي تهرع إليّ.. وفكرت فـي مـريم التـي دخلت الغرفة، وتحسست كفي بأسى، وأبدت أسفها لتأخرهـا في الحضور. قالت:

- ماما خافت من غضب عمي. فمنعتني من المجيء.

فهمست لها بفرح وارتياح:

- لن أذهب إلى الحفل.

فسارعت قائلة:

- أنا فرحانة.. لأنك هنا.

وجلست إلى جواري على حافة السرير، بينما كانت أمي تمسح على رأسي بحنان. واكتشفت أن أبي لا يرى أمي، ولا مريم، ولا يسمع أي صوت أو حوار يجري فـي الغرفـة..

ورأيته يخرج ويغادر المنزل بعـد أن أغلـق وراءه البـاب.
هبطت من السرير ومشيت إلى المصباح خفضـت إضـاءته
بإدارة مفتاحه إلى اليسار ثم عـدت إلـى السـرير، تمـددت
بارتياح في فراشي وأنا أفكر في أمي التي أريدها أن تعـود،
وفي مريم التي احتجزتها أمها قبل انحدار قرص الشمس فـي
نفق الغروب، بينما رأيت منزل خالي يغطي معالمه الخارجية
والداخلية ضباب كثيف.. كثيف.



اللوحــة..



اللوحـــــة..

دخلت فى الثالثة عصراً محل الخطاط (أبو العلا) بـــأول شارع القاضى. استلمت منه اللوحة الورقية المزخرفة التـــى أبرز فيها كلامى بخط كبير نقله من ورقة سلمتها لــــه أمـــس بعنوان "إلى أمى". جمّل الخطاط خلفية اللوحـــة بـــرش رزاز ملون كتب فوقه الكلام بلون بنفسجى. شكرته ونقدتـــه الـــثمن الذى طلبه، فى مقابل عمله الفنى الذى سرنى للغاية، وجعلنى أرى فوق الحروف وجه أمى الباسم المستدير..

مضيت إلى محل البراويز المجاور. طالعت لافتته التى تحمل اسم (براويز طنطا). دخلت المحل واتفقت مع صاحبه على وضع اللوحة داخل إطار نبيتى ملْت إليه فاخترته. نعمت بمشاعر سرورى وسعادتى وأنا أتابعه وهو يقطع بمهارة وخفة الزجاج على مقاس اللوحة، ويثبت فوقه الإطار النبيتى.. فرغ من عمله فى وقت غير طويل ثم غطى اللوحة بفرخ ورق أصفر وسلمها إلىّ. أعطيته ما طلب وحملت اللوحة تحت إبطى الأيسر وانصرفت..

أشارت الساعة فى يدى إلى الرابعة وأنا أقطع شارع البحر. انعطفت إلى شارع النادى.. هادئ.. ساكن.. فتمكنت من سماع أغنية تنبعث من راديو بكشك سجائر ومرطبات يتوسط الشارع.. أغنية "ست الحبايب" بصوت المطربة فايزة أحمد. فكرت فى المناسبة التى دعتنى إلى إعداد هذه اللوحة وهى احتفال الدولة بعيد الأم.. اليوم ٢١ مارس، وفكرت فى قيمة الجائزة الأولى التى حصلت عليها من نادى القصة بالإسكندرية عن قصة لى. أرسل النادى خطاباً على عنوان المنزل الأسبوع الماضى، مرفق به شيك بعشرة جنيهات، صرفته أول أمس من بنك مصر..

"رأيتني أصل إلى المنزل وأنا أتحسس جيبي بثقة واطمئنان واختيال. ورأيتني أجلس وسط إخوتى فى البلكونة ثم قلت:

- سوف احتفل بعيدها على طريقتى الخاصة.

فقالت علية التى تكبرنى بخمسة أعوام:

- قل لنا كيف ستحتفل به يا شاكر؟

وقال مدحت شقيقى الذى أصغره بعامين:

- اشتر لها شالا.

فقال توأمى فريد:

- أميل إلى رأى مدحت .. شال.

وقالت منى التى أكبرها بثلاثة أعوام:

- أنا أتوقع هدية شاكر.

تطلعت إليها العيون تستوضحها المزيد فأضافت:

- تورتة من محل "دوريه" الحلوانى .

أصخت بسمعى فسمعت أصوات أدوات المطبخ؛ كانت أمى كعادتها تجهز بنفسها طعام الغداء دون أن تشرك معها أحداً. لا تحب أمى أن ننشغل عن مهامنا الدراسية، وشهاداتنا

المنتظرة التى تجعل الناس يعملون للمتعلم ألف حساب.. تحب أمى أن أقرأ لها فى جريدة "الأهرام": الأخبار ، والحـوادث، والمقالات الدينية.. أنا أجيد القراءة.. أمى لا تعرف القـراءة ولكنها تحفظ من القرآن قصار السور فتتلوها أثناء الصـلوات بصوت هادئ خفيض مؤثر أميل دائما إلى الاستماع إليه.. كم حاولت أن أعلمها القراءة والكتابة، لكنها كانت دائمـا تعتـذر وتقول:

- يكفى أنكم متعلمون.. وأنا لى دور آخر.

وكنت أقول لها:

- لابد أن نساعدك.. الحمل ثقيل

- يكفى ما أنتم فيه.. وأستمد من الله العون

ولا أجد أمام عمق إصرارها، وقوة تصـميمها إلا الصـمت والمضى إلى شأنى بقلب مفعم بالحب والاطمئنان".

أتذكر الآن فرحتها العارمة وهـى تعـرف منـى أن الخطاب الذى تسلمته فى غيابنا يحتوى على إعـلان فـوزى بالجائزة وهى شيك بعشرة جنيهات .. مع شهادة تقدير..

انعطفت من شارع النادى إلى شارع كليوباترا حيـث منزلنا.. لاحظت أن عيون جيرانـى فـى منازلـه الخمسـة

المتقاربة تتابعنى وأنا أحمل اللوحة الملفوفة بالفرخ الأصفر.. لا يعرفون ما أحمله ولكن فضولهم نشط نتيجة حرصى على اللوحة بضغط إبطى عليها، وبقبضة يدى اليسرى على عارضة البرواز السفلى..

حين بلغت المنزل دلفت إلى غرفة الصالون. لم يكن بالمنزل سوى أمى.. كانوا جميعا بالخارج. نزعت الفرخ الأصفر ثم وضعت اللوحة على الطاولة بعناية وأنا أكاد أسمع ضربات قلبى .. ها هى سطور اللوحة تثير فى نفسى الشجون؛ أرى صور رعايتها لنا، وكدحها دون شكوى ولا ملل، وابتسامتها الطيبة الودود التى لا تفارقها، وصبرها المشهود عند الأزمات والشدائد، واتزانها فى مواجهة مرض شقيقتىّ الشابتين، وعند رحيلهما عن عالمنا منذ عشر سنوات؛ كتمتْ أحساسيس القهر والهلع وهم يشيعون سمية وعفاف الواحدة بعد الأخرى فى أسبوع واحد.. "كنت فى السابعة من عمرى عندما رحلتا. أمسكت يدى يوم عفاف بيسراها بينما رفعت يمناها بالوداع. لم أسمع فى أى مرة أى صوت يصدر عنها.. أصدرت نساء أخريات أصواتاً تندب الراحلتين الشابتين.. وسمعت أصواتاً تعزى أمى:

- الصبر يا رقية.. الصبر.
- لهما الجنة الواسعة يا رقية.
- الله يكون فى عونك يا رقية.

ورأيت أبى القوى فى كل مرة يختنق بالبكاء وهو يمضى مع المشيعين، لكن أحدا لم يرها تبكى أبداً.. وكم تسللت إلى غرفة نومها فرأيتها غارقة فى الـــدموع، وإذا لمحتنـــى واجهتنـــى بابتسامة حانية فأنصرف. وربما تساءلت وقتها:

- تبكى أمى وتبتسم فى وقت واحد؟!.

عرفت فيما بعد أن أمى شاءت ألا يتمكن الحزن الكبير مـــن قلوب أبنائها. كانت وما تزال صابرة عند كل شدة وأزمة".

أحسست بحنين جارف إليها، غادرت الصالون واتجهت إلى غرفتها.. تجلس على مقعد بجـــوار الســـرير وبجوارهـــا طاولة فوقها راديو صغير، تستمع إلى أغنية "ست الحبايـــب". تقدمت منها وقبلت رأسها المغطى بإيشارب أبيض، بدت منه خصلات من شعرها البنى الناعم، ربتت ظهرى ثم سألتنى:

- تأخرت يا شاكر؟! .. قلقت عليك !

نظرت فى عينيها العســـليتين الباســـمتين وجعلـــت أردد كلمات الأغنية مع فايزة أحمد بعض الوقت، بينما حيتنى هـــى

بابتسامة راضية. ربت كفها المكتنزة، وغادرت الغرفة إلـــى البلكونة الخلفية.. اتجهت صوب صندوق الأدوات. أخذت منه الشاكوش ومسماراً مناسباً. غادرت البلكونة واجتزت الصالة إلى الصالون.. ثم اخترت الحائط الأيمن.. وفى وسطه دققت المسمار وعلقت اللوحة. جلست فى الفوتيه أقرأ سطورها وأنا أشعر بسعادة غامرة، وتساءلت: مَن سيتولى القراءة لــك يــا أمى؟ . لابد أن يخبرك أحد بأن "شاكر" أهداك لوحـــة تحمـل كلمات لك. مَن سيقوم بمهمة القراءة لك يا أمى؟ ..

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى ســمعت صــوت أبـــى زهران الرشيدى العائد من أداء صلاة العصر بجــامع "أبـــو فريخة". نادى أبى وهو يمشى فى الممر الموصل إلى درجات السلم السبع التى تسلم الصاعد إلى باب جانبى يفضـــى إلـــى الصالون. عندما ينادى أبى على أحد منا نعرف أن بصـــحبته ضيفا.. أسرعت إلى فتح البـــاب وأفســـحت الطريـــق لأبـــى وضيفه.. بعد أن جلس الإثنان أمرنى أبى بعمل قهوة دون أن يلاحظ اللوحة المعلقة:

– قهوة يا شاكر لى ولعمك سالم.

مضيت إلى غرفة أمى وأبلغتهـــا، فنهضـــت مـــن المقعـــد، وغادرت الغرفة إلى المطبخ بهمة ونشاط وابتسامة صـــافية. تنفذ أمى طلبات أبى دائما بابتسامة صافية..

جلست فى الصالة بالقرب من باب الصالون فى انتظار أن أحمل صينية القهوة إلى أبى وضيفه. وجـــدتنى أتســـاءل: كيف لم تلفت اللوحة نظر أبى ؟! . أرجعتُ السبب إلـــى أنـــه دخل إلى الصالون وجلس بينما كان ظهره للحائط الأيمن الذى علقت فيه اللوحة. وقلت فى نفسى: ربما رآها ولكنـــه أجّـــل الحديث عنها إلى حين رحيل الضيف. ولكنـــى عـــدت إلـــى التساؤل: إن العم سالم الذى جلس فى مواجهة اللوحـــة: ألـــم يلفت نظر أبى إلى الحائط الذى احتلته؟ ، واستبعدت فكرة أن الضيف لم يرها حتى الآن؛ أحببت أن يعرف الجميع بســـرعة أن "شاكر" احتفل بأمه على طريقته الخاصة. كـــم أحـــب أن يعرف أقاربنا ومعارفنا وجيراننا وجميع النـــاس فـــى طنطـــا وقحافة وفى الأرياف والقاهرة والإســـكندرية والمنصـــورة. أردت أن يعرف سكان المدن الأخرى أن "شـــاكر زهـــران" احتفل بأمه على طريقته الخاصة..

دقت أمى على الصينية لتنبهنى من شـــرودى. نهضـــت واستلمت منها الصينية.. ودخلت الصالون وقدمت الفنجـــانين لأبى والعم سالم، ثم رجعت إلى جلستى فى الصالة انتظـــاراً لأمر جديد يصدره أبى، أو رحيل الضيف.. كـــم اســـتعجلت رحيل العم سالم لتدخل أمى الصالون وترى اللوحة، ولأشاهد ملامح الدهشة على وجه أبى الذى سيثنى على ابنـــه شـــاكر الذى يحتفل بأمه على طريقته الخاصة. أتوقع أن أبى سيعجب بكلمات اللوحة، وأتوقع أن إخوتى سيهنئوننى عليها..

سمعت صوت أبى ينادينى لأصحب العم سالم الذى قرر أخيرا الانصراف، رافقته حتى باب الحديقة.. لـــم أجـــد فـــى ملامح وجهه ما يدل على أنه انتبه إلى اللوحة المعلقة. كيـــف لم ينتبه لها وقد كان جالسا فى مواجهتها؟! وحدثت نفسى بأنه ربما لم ترق له فكرة الاحتفال بهذه الطريقة، ولذلك لم يكلـــف نفسه بالتعليق عليها. وقلت لنفسى وأنا عائد: تجاهُل العم سالم مقصود؛ فنقمت عليه وغضبت منه، وقررت ألا أسارع بعـــد ذلك إلى الترحيب به عند حضوره مع أبى، وألاّ أصحبه عند مغادرته المنزل..

دخلت المنزل باندفاع ولهفة.. وكم كانت مفاجأتى حين رأيت أبى يقف وسط الصالة وينادى أمى بصوت حنون:

- رقية .. تعالى وانظرى واسمعى كلام شاكر.

نهضت أمى من مقعدها بالغرفة ومضينا نحن الثلاثة إلى الصالون فى الوقت الذى حضر فيه إخوتى. ناداهم أبى بصوت مفعم بالسرور فانضموا إلينا.. جلس أبى على مقعد يواجه اللوحة، واتخذت أمى مقعدها المعهود أمامه، وتناثر إخوتى على المقاعد الأخرى، بينما جاء جلوسى على مقعد يجعلنى أراهما وأرى اللوحة. قال أبى وهو يشير إليها:

- فى اللوحة كلام عنك يا رقية بمناسبة عيد الأم .. كل سنة وأنت طيبة.

رأيت أمى التى تجهل المكتوب تطرق بوجه اعتلته حمرة خجل من كلام أبى الذى لم يكن قد قرأ بعد المكتوب باللوحة؛ فأمى دائما يحمر وجهها من أى مديح لها أو ثناء عليها. تبدو أمام المديح أو الثناء مثل فتاة فى سن الصبا. وها أنا أركز بصرى على وجهها المستدير المحبوب وهو يزداد احمرارا؛ فقد شرع أبى فى قراءة عنوان اللوحة وما يندرج تحته من سطور:

"إلى أمى"

لست أجد أحب شيء عندى أقدمه إليك فى عيدك سوى خواطر قلبى، الذى كم باركته بحنانك، وكم اقتلعت منه بيدك الرفيقة بذورا وغرست فيه بذورا، هى الآن أغصان متعمقة فى الأغوار مخضرة الأزهار.

فلو قيل لى: مَن بعد الله يستوجب منك الإجلال؟ لأشرت إليك . ولو قيل لى: من فى الحياة يستوجب منك التقديس؟ لقلت أنت. أو قيل لي: أين ضوؤك البراق على الدرب الطويل؟ لقلت أنت. أو قيل لى: أين تكمن معانى الرفق والعطف والحنان؟ لأشرت إليك بنظرة شاكرة، وبقلب عامر بالامتنان.

أجل يا أمى خواطر القلب إليك من ابنك فى عيدك؛ لما تبعثين فى دنياه من عذب الأمانى ولما تشيعين فى عالمه من حلو الأغانى"

ابنك البار شاكر

٢١ مارس ١٩٦٢

حين انتهى أبى من القراءة اتجهت أنظار إخوتى إلى أمى. نهضوا ومشوا نحوها بهدوء وقدموا هداياهم المتنوعة.. شكرتهم بعينيها وليس بصوتها. لاحظتها ترسل إلى نظرة مفعمة بمختلف المعانى، وسمعت أبى يقول معلقا على هداياهم:

- لوحة شاكر هى الباقية.. ذكرتنى سطورها بأمى.. أثرت فى نفسى كثيرا.

سكت للحظة ثم قال لها متجها إليها بصوت حنون:

- أعجبك الكلام يا رقية؟

هزت رأسها بالموافقة وهى تنظر إليه بوجهها المستدير المحمر مضمرة أحاسيسها تجاهى.. فكرت -فيما بعد- فى أنها آثرت إخفاء مشاعرها حرصا على مشاعر أبى.. وفكرت فى أنها على حق فى هذا الإخفاء؛ فكيف تحظى الأم بالتكريم العائلى والرسمى بينما لا يحظى بمثله الأب؟! أليس فى هذا مساسا بمشاعره ؟!. لماذا لا يكون الاحتفال العائلى والرسمى بالاثنين معا.. قالت أمى فى العام الماضى بحضور أبى:

- الاحتفال بالاثنين معا أفضل.

وعلق أبى بحيادية:

- نحتفل بك لأنك أساس العائلة.

ورغم تعليقه المحايد لمحت فى وجهه تعبيرا عرفت فيما بعد أنه يميل إلى أن يكون الاحتفال بالاثنين معا، ليعرف الصغار أن حركة العائلة وحيويتها لن تستمر إلا بالأب الذى لولاه لما وجدت العائلة، ولذلك قرأ علينا ذات يوم فى جريدة "الأهرام" أن الدولة تفكر فى تسمية أخرى هى "عيد الأسرة". ولمحت فى عينيه الارتياح. وصدقت أمى على الفكرة بقولها:

- التسمية بعيد الأسرة أفضل.

حمل اخوتى الهدايا ومضوا إلى الداخل؛ لأننا عرفنا من أبى أنه سيستقبل ضيفا بعد دقائق قليلة. نهضت أمى من مقعدها ورأيتها تختلس نظرة إلى اللوحة قبل أن تغادر الصالون. وكم أبصرتها وأنا جالس فى الصالة وهى تدخل إلى الصالون الخالى وتتظاهر بأنها تقصد الاتجاه إلى البلكونة ولكن كنت أراها تعود منها بسرعة وتدير بصرها بخجل إلى اللوحة وهى فى طريقها إلى الصالة.. كم لاحظتها وهى ترسل نظراتها إليها مرات ومرات فى اليوم الواحد فى صمت جليل وسكون عميق.

الباب..

البـــاب ..

(١)

قبضت يده اليمنى الصغيرة على "عيديّة" أبيه، بحـــرص شديد عكسته ملامح وجهه البرىء. مضى إلى مخرج الحارة الضيقة وهو يمّنى نفسه بأن "قرشي" العيد سوف ينضم إليهما قرش خالته "المصراوية" رشيدة، حينما يقصـــدها للمعايـــدة؛

اعتاد منذ عيدى العام الماضى أن تكون ثروته ذات الثلاثين مليمًا في حوزته وهو يقبل على أشياء "الجرن" المتناثرة..

توقف عند مخرج الحارة للحظات تأمل خلالها جلبابه الجديد الأزرق، والقميص الأحمر، والحذاء اللامع الأسود، ثم تابعت عيناه الصغار وهم يتوافدون على "جرن الغرايبة" الواسع بملابسهم الحمراء، والزرقاء والصفراء والخضراء. يستقبل الجرن – المخصص أصلا لدرس القمح– صغار قرية قحافة في الأعياد؛ ففوق أرضه الواسعة يتجمعون حول "الأراجيح" وبائعي "البمب" و"الصواريخ" و"البلوظة" و"المهلبية" و"غزل البنات". أشياء ستة يستهلك كل منها خمسة مليمات، فيكون مجموع ما يستهلكه ثلاثين مليمًا هي ثروته في أول أيام العيد..

انحدر به الطريق إلى الجرن، فاستمع بوضوح إلى أصوات صاحب "الأرجوحة" وبائعي الحلوى والمفرقعات، بينما كانت الشمس تشرق في الأفق الممتد أمامه دون أن يحجبها حاجب.. طرقت الأصوات المنادية أذنيه، وأغرته بالتقدم للمشاركة، ولكنه قرر ألا يبدأ أية مشاركة قبل أن

تكتمل ثروته بقرش خالته المصراوية التي تشغل هي وزجها وصغارها الخمسة الطابق الثاني بمنزل جده الذي سافر هـذا العام لأداء فريضة الحج.. فكر في أن كل شيء يتجمع حوله الصغار يحتاج إلى خمسة مليمات، وهذا يعني أن رغباته لـن تتحقق جميعًا إلا بإضافة القرش الموعـود... قـرش خالتـه المصراوية رشيدة..

تابع الدوائر الست بثقة وتوعّد واطمئنان؛ فمـا هـي إلا دقائق توصله إلى مسكن خالته ليحصل على القرش، ثم يعود إلى الجرن للمشاركة، على حين علت النداءات مـن وسـط الدوائر تحفزه وتغريه. ولكنه لن يخترق أيـة دائـرة.. ولـن يزاحم أحدًا، ولن يتأرجح الآن، ولن يتناول الحلـوى، ولـن يفرقع البمب، ولن يطلق الصواريخ؛ فثروته لم تكتمـل بعـد، وهو عاهد نفسه على ألا يصرف مليمًا ما لم تكتمل مليماتـه الثلاثون... قلب في كفه ثروته الناقصة، وهمس في ثقة:

– بعدما تعيّد عليّ بالقرش أرجع لأتأرجح وأشتري.

ثم أرسل بصره إلى المنزل الكبير الذي يتوسط أشجار النخيل والجازورينا.. آه.. ها أنت ترى القرش الأحمر النحاسي الذي

تتوسطه صورة الملك فاروق. كم أحب هذا القرش النحاسي، وكم هام به، ولم لا؟ فهو الذي يكمل فرحته ويضـــاعف مـــن سعادته في كل عيد..

قطع خطوات قليلة ليتجه إلى المنزل الكبير.. لكـــن مـــا لبث أن توقف بيد لامست كفـــه المتكـــورة. فـــزع وازدادت أصابعه ضغطًا على القرشين.. ظن أنه يتعـــرض لمحاولـــة "خطف" مليماته، لكن سرعان ما تبين له أن اليد التي لامست قبضة يده- هي يد "ثناء" .. جارته وصديقته ورفيقـــة لعبـــه ومرحه. سمعها تقول متسائلة:

- اشتريت؟

فأجاب بسرعة:

- لا ، وأنت؟!

فقالت وهي تهز كتفيها بيأس:

- أبى ضرب أمى ومشى من البيت.

- والعيديّة؟!

- قلت لك مشى من البيت.

دائمًا يتشاجر أبوها مع أمها ويسمع زعيقهما الجيران.. يتدخل أبوه أحيانًا عندما يلجآن إليه. ثناء أكبر أخواتهـــا. فـــي الثامنة من عمرها، في مثل عمره، يميل إليها وتميل إليه. كم لعب -بحضور صبيان الحارة- دور العريس، وأدت هي دور العروس. يعلم الكبار والصغار أن طارق الجمال يحب ثنـــاء النجار وتحبه، يغار عليهـــا وتغـــار عليـــه.. كيـــف عـــرف الصغيران أحاسيس الغيرة وهما في هذه المرحلة من العمر؟! وهل تعطيها مشاعر الحب والغيرة الحق في أن يشركها اليوم في ثروته الناقصة أو الكاملة؟! هو غيـــر مســـئول.. لمـــاذا خرجت في العيد وهي لم تحصل على العيدية؟! كل الصـــبيان في الجرن معهم العيديات. لماذا خرجت ثناء يوم العيد وليس معها نقود؟!..

- نفسي في المهلبية يا طارق .. نفسي.
- ...
- هات لي بلوظة.
- ...
- نركب المرجيحة؟

لم يجب، ولا يبدو أنه سيجيب عليها أبدًا.. تحول عنها وابتعد خطوات قليلة. لحقت به وهزت كفه المتكورة على القرشين:

- هات لي بلوظة..

ابتعد أكثر بل أمعن في البعد، بينما بدا له قرص الشمس واضحًا في ربع السماء الزرقاء. قال لنفسه: تقــول: نفســـي، ونفسي، ونفسي. وهي من غير عيديّة..! خرجت ثنـــاء مـــن غير عيديّة! كل صبيان الجرن معهم العيــديات. يصـــرفون، ويفرحون. لكن طارق لم ينفق شيئًا، وثناء عاجزة عن الشراء ونفسها ميالة للحلوى وركوب المرجيحة. أفضل لك يا ثناء أن ترجعي إلى المنزل..

(٢)

خلّف الجرن وراءه بأشيائه ودوائره الملوّنة، وتراجعـــت صور الأراجيح المرتفعة والمنخفضة المثيرة لصياح الصغار وضحكاتهم.. وابتسم بقلب مفعم بالسعادة. وهو يرى المنـــزل المنشود بطابقيه وسط شجرات النخيل والجازورينا المتناثرة. تسارعت خطواته إلى مدخله المفتوح المـــؤدي إلـــى ســـلالم الطابق الثاني. وهو يقطع الدرجات فكر في أنه في العيد بـــل

في كل عيد مضى يحظى بأشياء ترضيه وتفجر في نفسه أحاسيس السرور والبهجة..لا سيما عيديّة خالته المصراوية التي تزين القرية هي وصغارها، والتي توصله إليها – الآن – هذه الدرجة الأخيرة من السلم..

ها هو قد انتهى من صعود درجات السلم العشرين، ولن يمر وقت طويل حتى يأخذ العيديّة، ويهبط الدرجات ليعود إلى دوائر الجرن المثيرة، لتحقيق رغباته الست المنشودة بمليماته الثلاثين.. لكن ما هذا؟ الفناء أمام المسكن خالٍ وصامت. والباب مغلق.. توتر وانقبض صدره. قد كان يرى صغار خالته يمرحون في هذا الفناء ويحدثون ضجة أمام الباب الذي لم يغلق أبدًا في أي عيد مضى.. أين الأصوات والضجيج؟!.. لا يرى أحدًا ولا يسمع أي صوت. ما هذا الصمت المقلق؟!..

شعر بجفاف حلقه وهو يتقدم نحو الباب المغلق. وتضاعف قلقه الذي سرى في إلحاح إلى قلبه فأذاب ثلوج سعادته التي كان يخفق بها منذ قليل. ارتعش وأحسّ بالتأرجح.. كل جزء في جسمه الصغير يتأرجح. رأى نفسه في أرجوحة متسارعة جدًا توشك أن تقذف به في الهواء..

لكنه تقدم من الباب المغلق. وبقبضة يده التي تضـم ثروتـه الناقصة جعل يطرق الباب ببقايا أمل ما زال يرجوها طرقًـا بدأ بطيئًا متقطعًا، ثم سريعا متواصلا، حمّله توتره وانفعالـه وغضبه ويأسه فتلاشت بقايا أمله ورجائه..

عندما تأكد من خلوّ المسكن أنزل قبضته إلى جانبه فـي قنوط وتحول عن الباب.. تراجع بظهره خطوات ثـم توقـف للحظة ليسدد إلى الباب نظرات غاضبة حانقة.. لماذا تخلفـت الخالة عن الحضور؟ ألا تعلم أن حضورها "عيد"؟ ولماذا لـم يخبره أحد أنها لن تحضر هذا العيد؟ ولماذا لم تخبره أمـه أن خالته "رشيدة" قررت قضاء العيد في مكان آخر؟ إنهـم فـي المنزل يعرفون، ولكنهم بالقطع نسوا أن يخبروه.. ماذا يحدث الآن بعد أن تأكد له نقصان ثروته؟ إن ما بحوزتـه الآن لـن يلبى كل رغباته..

ها هو الآن يهبط الدرجات العشـرين بغيـر ثقـة ودون اطمئنان. منذ قليل كان واثقًا بأنه سيعود سريعًا إلى "الجـرن" لينفق ثروته التي اكتملت بقرش خالته. ماذا يحدث الآن بعـد أن تأكد له أن ثروته غير كاملة؟.. كيف لم تفكر خالتـه فـي

الحالة التي سيكون عليها طارق عندما يكتشف غيابها؟.. ها هو يخرج من الباب الحديدي الموارب وهو يشعر بيأس حاد وحسرة فائقة بينما تحرك قرص الشمس نحو وسط السماء الزرقاء منذرًا بقرب انفضاض الدوائر الملونة ورحيل أصحابها من الجرن..

(٣)

اقترب من "الجرن" الذي تغطيه الشمس.. دنا من الدوائر المتناثرة. استمع إلى النداءات التي لا تبهجه ولا تثيره، بل إن كل نداء يصدره بائع يحمل في تضاعيفه همًّا ثقيلاً.. والمشاهد المتعددة تذكره بأنه في ضائقة شديدة للغاية. مليماته العشرون لن تلبي رغباته الست، بينما واصلت الشمس تقدمها نحو وسط السماء الزرقاء.. ويصدم أذنيه نداء:

- بلوظة.

فيقف ويقترب يائسًا من دائرة يتوسطها بائع البلوظة.. ثم يغادر الدائرة ويمشي خلف الدوائر الأخرى، ويسيل همسه الذي لا يسمعه سواه:

- بلوظة؟ لا. غزل البنات؟ لا. مهلبية؟ لا. بمب؟ لا. صواريخ؟ لا. أركب مرجيحة؟ لا. آه!

أشياء العيد الستة الآن تحيره، لا يذكر أنه شعر بمثل هذه الحيرة فيما مرّ به من أعياد. كيف فاته أن يتوقع تخلف خالته رشيدة عن الحضور هذا العيد؟ أخطأت الخالة بعدم حضورها. أخطأت . أخطأت..

حين رأى قرص الشمس يتوسط السماء والدوائر تخف، والزحام يقل- فكر في أنه لا بد من أن يتنازل عن رغبتين ويجعل رغباته فى هذا العيد أربعًا بدلا من ست رغبات. نعم نعم .. فليتنازل عن رغبتين وإلا أدركه الوقت فينصرف الباعة ويغادر الجرن بقايا الصبيان والبنات. وقال:

- أشتري بلوظة وبمب ومهلبية وأركب مرجيحة.

لكنه لم يتحرك؛ ظل في مكانه متسمرًا، وقال:

- لا.غزل البنات وصواريخ ومهلبية وأركب مرجيحة.

- لا. لا.

وجعل ينقل عينيه بين الدوائر الست المتعددة ذات الألوان المختلفة، بكل دائرة ألوان تجذب بصره وتثير في نفسه إحساس القنوط، ويرتفع من وسط كل دائرة نداء يكاد أن يصم أذنيه، ويضاعف من أمواج يأسه وتوتره، لا سيما أن قرص

الشمس قد توسط السماء دليل اقتراب رحيل الباعـــة، وتبـــدد الدوائر الست بمغادرة الصغار الجرن إلى منازلهم..

فجأة شعر بيد صغيرة تلامس أصابع يده اليمنى القابضة على ثروته الناقصة التي لم ينفق منها مليمًا واحدًا حتى الآن. التفت إلى جواره، فرأى "ثناء".. ازداد توترًا حين لـــح فـــي وجهها أمارات الحيرة والحزن والشرود . مـــاذا تريـــد منـــه ثناء؟!

- أنت رجعت يا طارق.. هات لي حاجة.. أى حاجة!

حدجها بنظرة غاضبة وحول وجهه عنها، وأدار لهـــا ظهـــره ومشى. لحقت به ولامست كفه المتكورة مرة أخرى.

- نفسي في المهلبية يا طارق.

طارت كلماتها في الهواء لأنه لم يستجب لرجائها، ابتعد وأمعن في البعد عنها قاصدًا مغادرة الجرن بدوائره الموشـــكة على الانقضاض، بينما طارده صوت "ثناء"، وضحكات أطفال عائدين إلى منازلهم بعد أن أنفقوا عيدياتهم. شعر بضيق يملأ صدره، فأخذ نفسًا عميقًا، ومسح بظاهر كفه الأيســـر حبـــات عرق سالت على وجهه الأسمر بفعل حرارة الشـــمس التـــي

توسطت تماما السماء الزرقاء.. وبدلا من أن يواصل سـيره إلى منزله مع بعض الصغار العائدين- وقف واستدار، وعاد مرة أخرى إلى الجرن الذى ما زالت دوائره منعقدة بقلّة مـن الأطفال لا ليرقب الدوائر هذه المرة بحسرة، ولكن لينادي ثناء التي أسرعت إليه وهو يفك أصابع يده.. أعطاهـا القرشـين باطمئنان وغادر المكان.

المحتوى

المحتوى

القصة	الصفحة

كتب أخرى للمؤلف

أ- القصص:

- **سلوى الروح:** (رواية) ط(٢)، دار الإبداع، ٢٠٠٦.
- **الجرح:** مجموعة قصصية، ط (١) ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.
- **الكلام:** مجموعة قصصية، ط(١)١٩٨١ ط(٢)، الآداب-القاهرة، ١٩٩١.
- **أمواج الفردوس:** قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.
- **العائد بالحب:** رواية، ط(١) دار الإبداع، ٢٠٠٦، ط(٢) أجيال٢٠٠٨.
- **فوق الأحزان:** رواية، هيئة قصور الثقافة، (تحت الطبع).

ب- الكتب:

- **فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ:** ط(١) مكتبة أم القرى١٩٨٤، ط(٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٨.
- **قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم:** ط(١)، الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **تذوق الفن الشعري في المورث النقدي والبلاغي:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي:** ط (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩١.
- **الخطاب النفسي في النقد العربي القديم:** ط(١) الأنجلو المصرية١٩٩٣، ط(٢) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠٦.
- **فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٥.

- **جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر:** ط(١) ١٩٩٥، ط (٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٩.
- **الصنعة الفنية في التراث النقدي:**ط(١) مركز الحضارة العربية -القاهرة ١٩٩٩.
- **طاقات الشعر في التراث النقدي:**ط(١)الأنجلو ٢٠٠٠، ط(٢) مكتبة الآداب، ٢٠٠٧.
- **نظرية الإبداع الشعري عند النواجي:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٠.
- **إحكام النص الشعري في التراث النقدي والبلاغي:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠١، ط(٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨.
- **تحليل النص الأدبي: دراسات في الأجناس الأدبية** (بالاشتراك مع د. عزة الغنام ود. الزهراء بدوي) ط(١) الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠١.
- **تجليات الإبداع الأدبي:** ط (١) الآداب- القاهرة ٢٠٠٢، ط(٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨.
- **أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق:**ط(١) الآداب-القاهرة ٢٠٠٣.
- **الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق:** ط(١) الآداب- ٢٠٠٣.
- **البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ:** دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦،ط(١) الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠٤.
- **مرايا التجلي: رؤى نقدية كاشفة:** ط(١)، الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.
- **فيض القلم: مقالات في الثقافة والأدب:** ط (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- **نجيب محفوظ حالمًا بالقمر:** ط(١) الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦.